هكذا غنى

طاغور

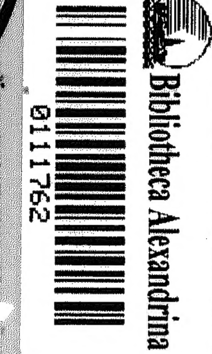
**





ترجمة

خليفة محمد التليسي



الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر

هكذا غنّى طاغور

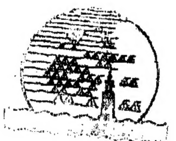
هكذا غنّى طاغور

المسابة

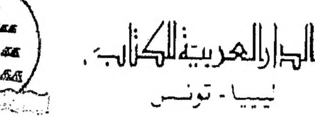
**

ترجمة:

خليفة محمّد التلّيسى



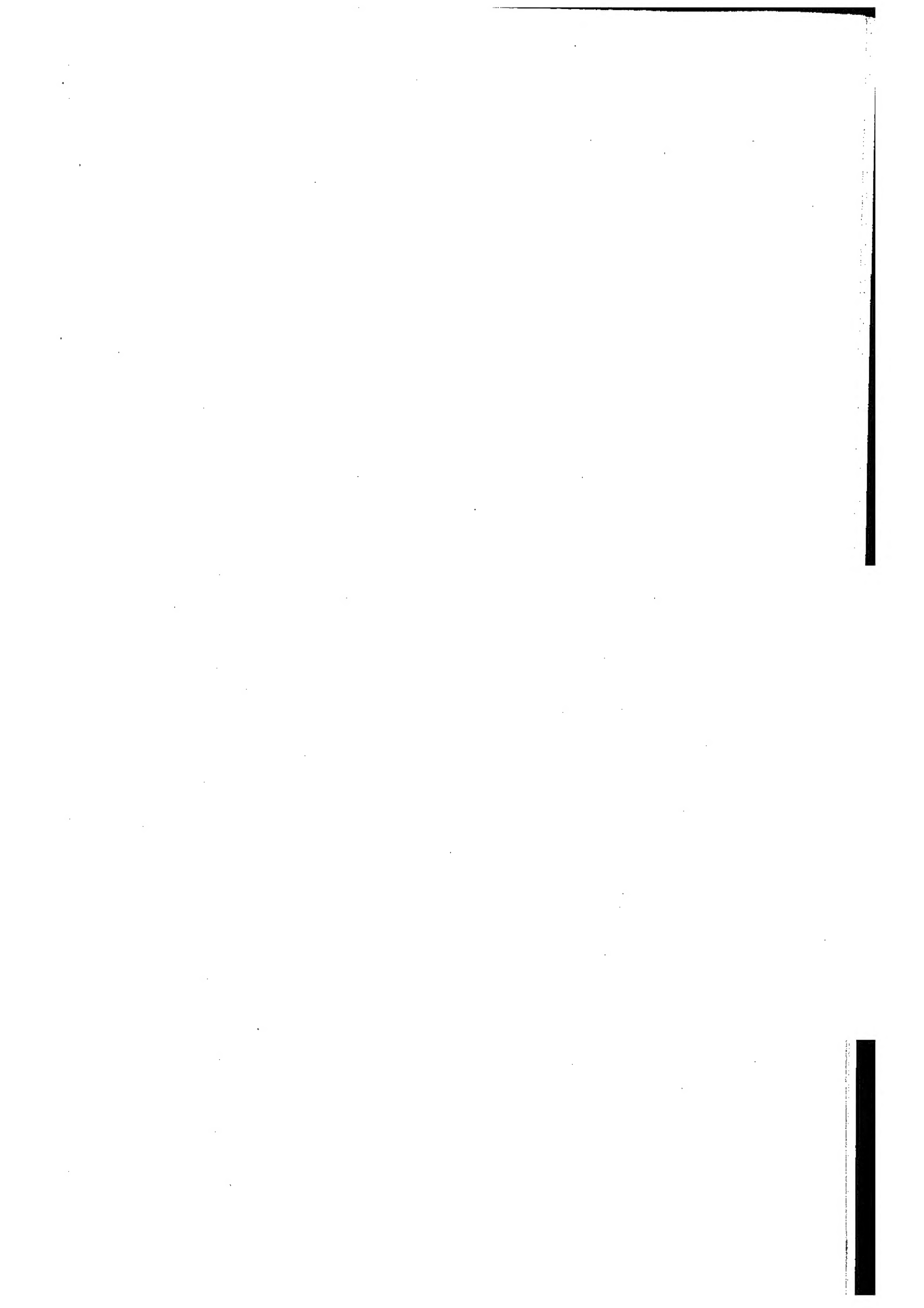
المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر



الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس

رقـم الايداع بدار الكتب الوطنيـة
89/673
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى





تواريخ هامة في حياة طاغور

1861 في يوم 6 مايو من هذا العام ولد الشاعر بمدينة كلكتا في أسرة معروفة بالعراقة والوجاهة والمكانة العلمية الأدبية . فقد كانت لوالده مكانة دينية واجتماعية بارزة في إقليم البنغال ، كما تميز إخوته وأخواته بالنبوغ الأدبي والفني والموسيقي ، مما هيأ له الفرصة لأن يترعرع في بيئة غنية بالثقافة متفتحة على مختلف التيارات والاتجاهات الأدبية والفلسفية الهندية والشرقية والغربية .

1875 وفاة والدته . وكان حينذاك في الخامسة عشرة من عمره . نشر بواكيره الشعرية الأولى في احدى المجلات الأدبية التي كانت تصدر بكلكتا .

وحين قارب العشرين من عمره نشر أولى مجامعيه الشعرية بعنوان (أغاني الصباح) ثم أتبعها (بأغاني المساء) فكان بذلك يدشن عهدا جديدا في مسار الشعر البنغالي الحديث .

1877 أرسله والده إلى انجلترا لدراسة القانون . فلم يوفق إلى التخرج فيما أراد له والده من اختصاص ولم يلبث أن عاد إلى بلاده دون شهادة . ولكنه عاد بحصيلة وافرة من المعلومات والتجارب التي غذت اهتماماته في مجالات الأدب

* انظر المقدمة في الجزء الأول من المجموعة .

والموسيقى . وبعد إقامة استمرت أربعة عشرا شهرا عاد إلى بلاده مواصلا نظم الشعر وكتابة الدراسات الأدبية .

1883 وفي 9 ديسمبر من هذا العام تزوج مربنا ليني ديبي .

1890 قام برحلة ثانية إلى أوربا زار فيها انجلترا مارا بفرنسا وايطاليا . وذكر الرحلات هناأمر هام في حياة طاغور ، وماحققه من شهرة عالمية ، وقد اتخذ من هذه الرحلات جسرا يصله بكبار الأدباء في العالم والتعريف بأدبه ورسالته في أرجاء المعمورة .

1891 عين نائبا لرئيس أكاديمية الآداب في البنغال ومن ذلك الحين انصرف انصرافا كاملا إلى النشاط الأدبي وكرس جهوده لخدمة الحركة الأدبية والعلمية في بلاده التي أخذ يعني بشئونها السياسية .

1901 أسس بشأنتي نيكتان مدرسة صارت فيا بعد الجامعة الدولية فسفابهاراتي .

1902 وفاة زوجته .

1904 وفاة ابنته .

1905 وفاة والده .

1907 وفاة ابنه الأكبر .

وقد كان لهذه الأحداث المحزنة أثر عميق في نفسه ، وشعره ينعكس بشكل حاد في كثير من قصائده . وفي وفاة ابنته كتب ديوانه الطفل الذي ترجمه إلى الأنجليزية بعنوان الهلال .

1909/1912 كتب خلال هذه الفترة ديوانه جنتجالي (قربان الأغاني) ونشره باللغة البنغالية 1910 وهو العمل الذي صنع له شهرته العالمية ونال به جائزة نوبل للآداب فكان أول شاعر شرقي يظفر بها .

1912 قام بزيارته الأولى للولايات المتحدة ألقى فيها جملة من المحاضرات تحول إلى انجلترا في زيارة ثانية حيث التقى بالشاعر عزرا باوند ووليام بتلر يتس وهما الشاعران اللذان نهضا بعبء تعريف الغربيين به وكان طاغور قد قام اثناء الرحلة بترجمة

بعض أشعاره إلى الإنجليزية وحين اطلع عليها الشاعر الإنجليزي يتس تحمس لها .

1912 في نوفمبر من هذا العام نشر ديوان جتنجالي بالإنجليزية بتقديم الشاعر الإيرلندي يتس .

1914 منح طاغور جائزة نوبل على هذا الديوان وقد خصص ربع الجائزة لتطوير جامعته المعروفة ومنحته جامعة كلكتا لقب الدكتوراه الفخرية .

1915 منحته الحكومة البريطانية لقب (سير) وهو اللقب الذي أعاده إلى الحكومة البريطانية عقب الأعمال القمعية التي قامت بها في سنة 1919 بإقليم البنجاب .

1916 زار اليابان .

1917 زار الولايات المتحدة مرة ثانية وألقى سلسلة من المحاضرات . كما انتخب في هذه السنة رئيسا للمؤتمر الوطني بكلكتا .

وعني في هذه الفترة بالعمل على تطوير جامعته وتوسيعها، فلم يكتف برصد ربع جائزة نوبل والحقوق العائدة فقام بجولة جديدة حول العالم استغرقت أربعة عشر شهرا لجمع التبرعات لهذه الجامعة .

1921 تمكن طاغور بعد جهد كبير من افتتاح جامعته العالمية فيسفابهاراتي وهي تسمية استوحاها طاغور من أحد الأبيات الشعرية السانسيكريتية وتعني المكان الذي يتحد فيه العالم في وكر واحد .

1922 زار فرنسا وانجلترا والدانمرك والسويد وألمانيا .

1924 زار ماليزيا والصين واليابان .

1925 حل ضيفا على الحكومة الفاشية الإيطالية وحسبت عليه تصريحاته السياسية التي تتسم بالسذاجة وطيبة النفس أكثر مما تعبر عن الموقف السياسي المناصر .

كما عين في هذه السنة رئيسا للمؤتمر الفلسفي بالهند .

1926 قام خلال هذه الفترات بعدة رحلات حول العالم زار خلالها سويسرا ، النمسا ، وفرنسا حيث كان ضيف الكاتب الفرنسي الشهير رومان ورلاند ، ثم زار أيضا انجلترا والنرويج ، ويوغسلافيا ، بلغاريا ورومانيا ، وتركيا ، واليونان ومصر حيث كان موضع حفاوة من الأوساط السياسية والأدبية واحتفى به الشاعر أحمد شوقي في بيته كرمة بن هاني ، وزار أيضا ماليزيا والصين واليابان وكندا والهند الصينة والدنمرك وروسيا والولايات المتحدّة .

وكان خلال هذه الرحلات يقوم بالتبشير بمبادئه ويقرأ شعره ، ويجمع التبرعات لجامعته ، ويقيم العلاقات مع أبرز الشخصيات الأدبية والفكرية والسياسية في عصره . وعرض في أوربا وامريكا بعض لوحاته مقدما بذلك وجها آخر من وجوه مواهبه المتعددة .

1928 بدأ في ممارسة هواية الرسم .

1929 رحلات إلى كندا واليابان وسايجون .

1930 عودة إلى انجلترا وفرنسا وألمانيا وسويسرا وروسيا .

عرض رسومه في برمنجهام ولندن وبعض العواصم الأوربية .

1932 رحل إلى العراق وإيران بطريق الجو . وفاة حفيده الوحيد .

1933 وكان في هذه المرحلة قد جاوز السبعين من العمر فاستراح إلى الإقامة في بلاده وكف عن التجوال سوى رحلة قصيرة قام بها إلى سيلان .

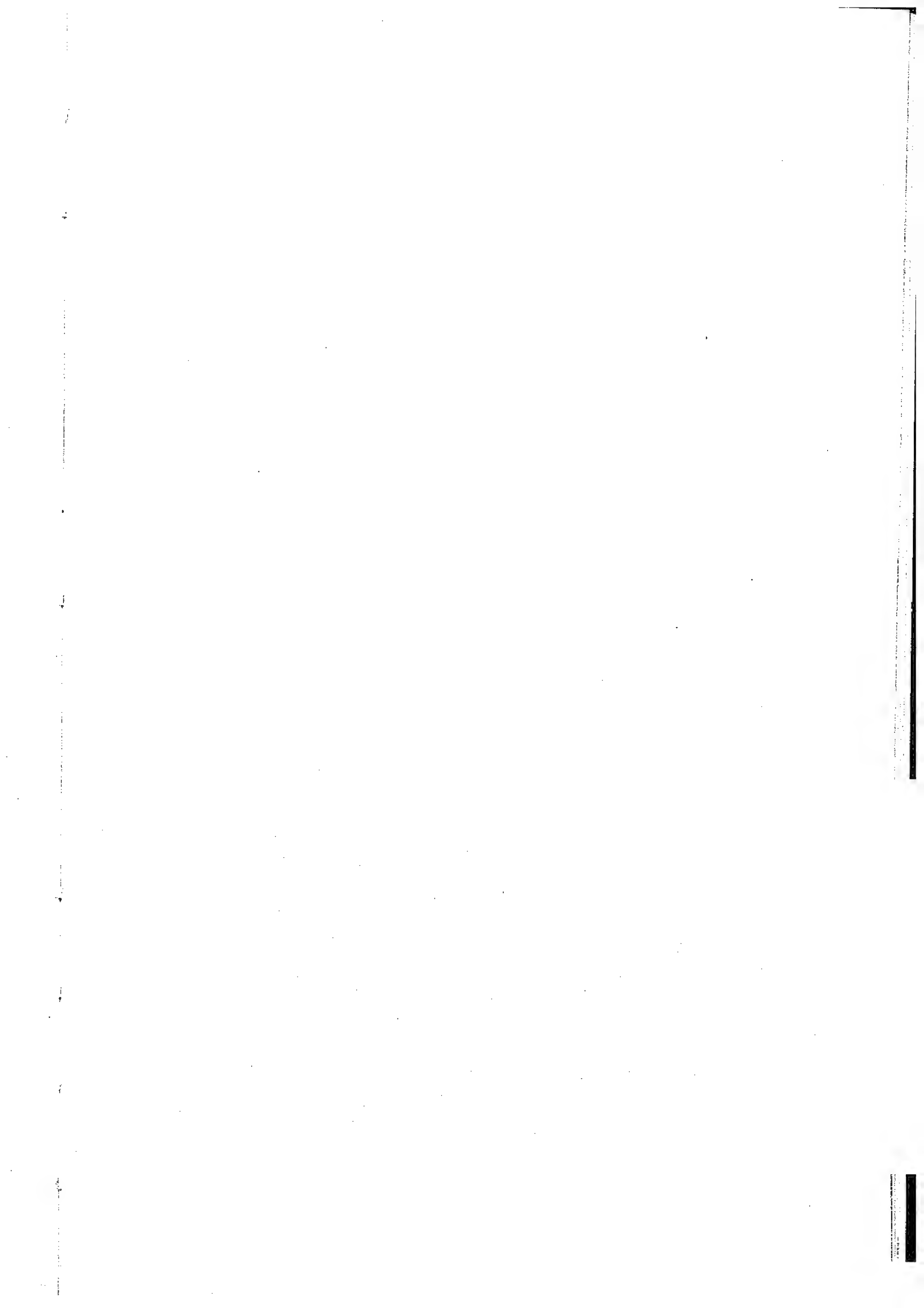
1940 آخر لقاءات طاغور مع غاندي في سانتي نكتان . جامعة اكسفورد تعقد اجتماعا في سانتينيكتان لمنحه درجة الدكتوراه الفخرية . وهو شرف لم يحظ به غيره من قبل ، فالمعروف أن الجامعات تمنح هذا التكريم في مقارها التاريخية .

1941 في يوم 17 اغسطس من هذا العام توفي الشاعر العظيم في الثمانين من عمره في البيت الذي ولد فيه فبكاه العالم وفقد فيه شاعرا من شعراء الأنسانية الكبار .

1948 اغتيال غاندي .

1949 إعلان استقلال الهند .

جَنْيُ الثِّمَار



2

عِنْدَما كُنْتُ شَابّاً

كَانَت حَياتِي كالزَّهْرةِ

تُسْقِطُ قِطْعَةً أو قِطْعَتَيْنِ

مِمَّا تَمْلِكُ مِن أفْوَافِهَا

دُونَ أَن تَشْعُرَ بِفقْدَانِها

حِينَ يأْتِي الرَّبيعُ ويَقِفُ

مُسْتَعْطِياً عِنْدَ بَابِهَا.

والآنَ

وعِنْدَ نِهَايَة الشَّبَابِ

صَارَت حَيَاتِي كالثَّمَرةِ

التِي لَيْسَ لَهَا مَا تُوَفِّرُهُ

وتَنْتَظِرُ أن تَمْنَحَ نَفْسَها كُلَّهَا

بِكُلِّ حَلاَوتِها الخَاصَّة . .

4

استَيْقَظْتُ

فَوَجَدْتُ رِسَالَتِه تَأْتِيني مَع الصَّبَاحِ

لا أَدْرِي مَا تَقُولُ الرِّسالةُ

لأَنِّي لاَ أَعْرِفُ القِرَاءَةَ

سَأَدَعُ العَالِم الحَكِيم مُنْصَرِفاً إِلى كُتُبِهِ

وَلَسْتُ أَرْغَب في مُضَايَقَتِهِ

مَنْ يَدْرِي إذا كَان سَيعْرِفُ مَا تَقُولُه الرِّسَالة

سأَطْبَعُهَا على جَبِيني

وأَشُدُّها إلى صَدْرِي

وحِينَ يَشِيعُ السُكُونُ في اللّيْلِ

وتَسْطَعُ النُّجُوم وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى

سَأَنْشُرَها فِي حِضْنِي

وأَظَلُّ صَامِتاً .

إن حفِيف الأَوْرَاق

سَيَتْلُوهَا عَلَيَّ بِصَوْتٍ عَالٍ .

والجَدْوَلُ حِينَ يَنْسَابُ سَيُرَدِّدُهَا فِي أَغْنِيَة .

ونُجُومُ الثُرَيَّا السَّبْع

ستُغَنِّيها لِي مِن السَّمَاءِ .

لاَ أَعْرِفُ كَيْف أَعْثُرُ عَلَى مَا أَبْحثُ عَنْهُ

وَلاَ أَدْرِي مَا الذِي يَنْبَغِي عَلَيَّ مَعْرِفَتُهُ وَتَعلُّمُهُ

ولَكِن هَذِه الرِّسَالَة

خَفَّفَت أَعْبائِي

وأَحَالَت أَفكَارِي إِلى أُغْنِيَاتٍ .

(5)

حَفْنَةٌ مِن التُّرابِ

كَانَت تُخْفِي عَنِّي إِشَارَتَكَ
حِينَ كُنْتُ لاَ أَفْقَهُ مَعْنَاها .
أَمَّا الآن وَقَد صِرْتُ أَعْقِلُ وأَفْهَمُ
فإِنِّي أقرَأُهَا في كُلِّ ما كان يُخْفِيهَا
إِنَّها مَرْسُومَةٌ على أَفوْافِ الزَّهْرِ
ويَسْطَعُ بِها زَبَدُ الأَمْواجِ
وتَرْفَعُها الهِضَابُ عاليةً فَوْقَ القِمَمِ
لَقَدْ نَحَّيْتُ وَجْهِي عَنْكَ
فَأَسَأْتُ قِرَاءَة رَسائِلَك
ولَم أَفْهَمَ مَعْنَاهَا . .

6

حَيْثُ الدُّرُوبُ المَطْرُوقَةُ
أَضِلُّ طَرِيقِي
وفي البَحْرِ الهَائِلِ

والسمَاءِ الزرقَاءِ

لاَ أثَرَ لأيٍّ طَرِيقٍ

والدُّرُوبُ تَحْجُبُها أَجْنِحَةُ الطُّيُور

وبَرِيق النُّجُومِ

وزُهُورُ الفُصولِ المُتَقَلِّبَةِ.

وأَسْأَلُ قَلْبِي

إِذَا كان الدَّمُ الذِي يَتدَفَّقُ فِيهِ

يَحْمِلُ حِكْمَةَ البَصَرِ

بالطَّرِيق اللاَّمَنْظُورة . .

(7)

أَوَّاه ، لَم أَعُدْ قَادِراً عَلَى البَقَاءِ فِي البَيْتِ

والبَيْتُ لَمَ يَعُدْ بَيْتي

بَعْدَ أَنْ أَخَذَ الغَرِيبُ الأَبدِيّ

يَدْعُوني إِلَيْهِ

وَيَتَقَدَّمُني فِي الطَّرِيقِ .

إن صَدَى خُطُوَاتِهِ يَخْفقُ فِي صَدْرِي

ويُؤْلِمنِي

والرِّيحُ تَرْتَفِعُ

والبَحْرُ يَهِيجُ

سَأَتْرُكُ جَمِيعَ شُكُوكِي واهتِمَامَاتِي

لأَتْبَعَ هَذا المَدَّ الذِي لاَ مُسْتَقَرَّ لَه

ذَلِكَ أن هَذَا الغَرِيبَ

يَدْعُوني

وَيَتَقَدَّمُني فِي الطَّرِيقِ . .

8

يَا قَلْبِي

كُنْ مُتَحَفِزًّا لِلاقْلاَع

ودَعْ عَنْكَ مَنْ أَرَاد التَّخَلُّفَ

لَقَد تَعَالَى النِّداءُ بِاسْمِكَ
فِي سَمَاء الفَجْرِ
فَلاَ تَترَقَّب أَحَداً.
إِن تَوْقَ البُرْعُمِ يَتَّجِهُ إِلى اللَّيْلِ والنَّدَى
ولَكِنَّ الزَّهْرَةَ النَّامِيَةَ
تَتُوقُ إِلى حُرِيَّة النُّورِ
فَحَطِّمْ غِلاَفَكَ
يا قَلْبِي
واخْرُج إِلى العَرَاءِ.

9

حِينَ كُنْتُ استَعْرِضُ عَلَى مَهَلٍ
كُنُوزِي التي جَمَعْتُهَا
كُنْتُ أَشْعُرَ كَأَنَّني دُودَةٌ
تَتَغَذَّى مِن الفَاكِهَةِ التي وُلِدَت فِيهَا

سَأَتْرُك سِجْنَ الانْحِلاَلِ هَذَا

وَلَن أَهْتَمَّ بِغِشْيَانِ أَجْوَاءِ الهُدُوءِ المُتَعَفِّن .

وَلأَنَّني ذَاهِبٌ لِلبَحْثِ

عَن الشَبَابِ الخَالِدِ

فَإِنِّي سَأَطْرَحُ كُلَّ مَا لاَ يَنْسَجِمُ

مَعَ حَيَاتِي

ومَا لَيْسَ خَفِيفاً خِفَّةَ الابتِسَامَةِ الهَانِئَةِ

سَأَعْدُو مَع الزَّمَنِ

يَا قَلْبِي

فَعَلَى مَرْكَبتِكَ

يَرْقُصُ الشَّاعِرُ الذِي يُغَنِّي

وَهُوَ يَجُوبُ الآفَاقَ . .

(10)

أَخَذْتَ بِيَدِي

وَسَحَبْتِنِي إِلى جَوَارِكَ

وأَجْلَسْتَنِي أَعْلى الكَرَاسِي أَمَامَ النَّاسِ

حَتَّى صِرْتُ خَجِلاً

غَيْر قَادِرٍ عَلى الحَرَكَةِ

وَمُتَابَعَة طِرِيقي .

وَيسْتَوْلِي عَلَيَّ الشَكُّ والتَّرَدُّدُ

فِي كُلِّ خُطْوَةٍ أَخْطُوهَا

حَذِراً أَنْ أَدُوسَ شَوْكَةً

مِن أَشْوَاكِ سُخْطِهِم .

وأَخِيراً تَحَرَّرْتُ

وَجَاءَت الضَّرْبَةُ القَاضِيَةُ

وَدَقّ طَبْل الإِهَانَةِ

وسُحِبَ عَرْشِي فَوْقَ التُّرابِ

وأَمَامِي

انفَتَحَت كُلُّ الدُّروبِ

إن أَجْنِحَتِي عَامِرَةٌ بالرَّغْبَة فِي السَّمَاءِ
سَأَذْهَبُ لِبُلُوغِ النُّجُومِ المُتَسَاقِطَةِ
وأُغْرِقُ نَفْسي فِي الظِلِّ العَمِيقِ
إِنَّني كَالسَّحَابة الصَيْفِيَّةِ
التي تَدْفَعُهَا العَاصِفَة
حَتَّى إذَا أَلْقتْ عَنْهَا تَاجَهَا الذَّهَبِي
عَلَّقت حُرِّيَتَهَا كالسَّيْفِ
فَوْقَ سِلْسِلَةَ من البُرُوقِ .
وفي بَهْجَةٍ يَائِسَةٍ
أَرْكُضُ في دَرْبِ الإِهانَةِ المُتْرِبِ
مُقْتَرِباً مِن تَرْحِيبكِ الأَخِيرِ.
إن الطِّفْلَ يَجِدُ أُمَّهُ
حِينَ يُغَادِرُ حِضْنَها .
وحِينَ انْفَصَلْتُ عَنْكَ
وطُرِدْتُ مِن بَيْتِك

صِرْتُ حُرّاً فِي أَنْ أَرَى وَجْهَكَ .

11

هَذِهِ السِلْسِلَةُ المُرَصَّعَةُ بِالجَوَاهِرِ

إِنَّهَا تُزَيِّنُنِي

لِتَسْخَرَ مِنِّي

وَحِينَ تُطَوِّقُ عُنُقِي

تُؤْلِمُنِي

وتَخْنُقُنِي حِين أُحَاوِلُ نَزْعَهَا .

إنَّها تَقْبِضَ عَلَى حَلْقِي

وتَخْنُق غِنَائِي

لَو كَان فِي وِسْعِي أَنَ أَهَبَها لَكَ

يَا مَوْلاَي

حِينئِذٍ فَقَط سَأَكُونُ حُرّاً

فَانْزَعْهَا عَنِّي

وعِوَضاً عَنْهَا شُدَّنِي إِلَيْكَ

بِإكليلٍ مِن أكالِيلِك

لأَنِّي أَشْعُر بالخَجَلِ

لأن أَقَف أَمَامَ سُدَّتِكَ

بِهَذه السلسلة المُرَصَّعَة بالجَوَاهِرِ

التي تُطَوِّقُ عُنُقِي .

12

في أَسْفَل الوَادِي

كَان نَهْرُ (جومنا)

يَتَدَفَّقُ مُسْرِعاً صَافِياً

ومِن كُلِّ جَانِبٍ، تَنْظُرُ إِليه الضِّفَافُ

المُتَجهِّمة بِغَابَات الهِضَاب الكَثِيفَةِ

التي تَعْلُوها وأَخَادِيدِ السُّيُولِ .

كان المُعَلِّم الأَكْبَر (جُوفندا) جَالِساً

فَوْقَ صَخْرَةٍ يَقْرأ صَفْحَةً

حِين جَاءَهَ تِلمِيذُه (راجُونات)

المُعْتَزُّ بِثَرْوَتِه الطَّائِلَةِ

وانحَنَى أمامَه قَائِلاً :

لَقد جئْتُ إِلَيْكَ بِهَدِيَّتِي

المُتَواضِعَة ، وهي أَقَلُّ مِن أَنْ

تَحْظَى بِالقَبُولِ مِن مَقَامِكَ

وحِين كَانَ يقُولُ ذَلِك

أَلْقَى أَمَام المُعَلِّمِ

سِوَارَيْنِ من الذَّهب المُرَصَّع بِالجَوَاهِرِ

فَتَنَاوَل المُعَلِّمُ وَاحِداً مِنَها

وأَخَذَ يُدِيرُه فَوْق إِصْبَعِهِ

فَتَلأَلأَت الجَواهِرُ بأَنْوَارِها التي تَخْطَفُ الأَبْصَارَ

وفُجْأَة ،، انزَلَق مِن يَدِهِ وتَدَحْرَجَ

فوقَ الضِفَّة ثُمَّ وقَع فِي المَاءِ

فصَرَخ (رَاجُونات) مُتحَسِّراً (أوَّاه)

وأَلْقَى نَفْسَه في النَّهْرِ

وصَوَّبَ المُعَلِّم بَصَرَهْ نَحْو الكِتَابِ

وأَخْفَى النَّهر مَا كَان قَد سَرَقَهُ

وتَابَعَ جَرَيانَهُ

كان النَّهَارُ يَشْحبُ ويَقْتِرِب

من الأُفُولِ

حِينَ عاد (راجُونات)

إلى أستَاذِه مُتْعَباً مَهْدُوداً يَقطُر مَاءً

وقَال لَه وَهَو يَلْهثُ :

يَمْكِنُنِي العُثُور عَلَيهِ

إِذَا بَيَّنْتَ لِي مَكَان وُقُوعِهِ

فَتَنَاوَل الأستاذ السِّوَارَ الثاني

وأَلقْى بِهِ في المَاءِ

قَائِلاً :

إِنَّهُ هُنَاك .

13

إن السَّيْرَ هُو اللِّقاءُ بك في كُلِّ لَحْظَةٍ

يَا رفِيقَ السَّفَرِ

وهُو الغِنَاءُ على وَقْعِ خُطُواتِكَ

إِنَّ مَن لاَمَسَتْهُ أَنْفَاسُك

لاَ يَلُوذُ بالضِّفافِ للاحتِمَاء بِهَا

ولَكِنَّهُ يَنْشُرُ أَشْرَعَةً مُتَحَدِّيَةً

ويُشُقُّ العُبَابَ الهَائِجَ

ذَلك أن الذي يَفْتَحُ أَبْوَابَه

ويَتَقَدَّمُ نَحْوَكَ يَظْفَر بِرضَاكَ

إِنَّه لاَ يجْلِس لِكي يُحْصِي أَرْبَاحَه

أَوَ يَبْكِي خَسَائِرَه

إِن قَلْبَه يَدُقُّ طَبْل زَحْفِهِ

وذَلِك معنى السير مَعَك

في كُلِّ خُطْوَةٍ

يَا رَفيقَ السَّفَرِ

(14)

إِنَّ نَصِيبي

من خَيْرِ هذا العَالَمِ

سَيَأْتِي من يَدَيْكَ

ذلك هو وَعْدُكَ

ومن أجْل ذَلكَ يَلْمَعُ نُورُكَ

في دُمُوعي .

أَخشى أَن يَقُودَني الآخرونُ

فَأَفُوتَك

وأنتَ الذي تَنْتَظِرني

في زَاوِيَة إحدى الطُّرُق

لِتَكُون مُرْشِدِي

وأَقْطَعُ طَرِيقي بإصْرَارٍ

حَتَّى يَجْذبَكَ جُنُونِي

إلى بَابِي

لأنك وَعَدَتِنِي

بِأَنَّ نصيبي مِن خَير هَذا العَالَم

سَيَكُون عَلَى يَدَيْكَ.

(15)

بَسِيطَةٌ كَلِمَاتُك، أيُّها المُعَلِّم

بساطةً لا يمْلِكُها أُولئك الذِينَ يَتَحَدَّثُون عَنْكَ

إنّي أَفْهَمُ صَوْتَ نُجُومِكَ

وصَمْتَ أَشْجَارِكَ

وأَعْرِفُ أن قَلْبِي سَيَتَفَتَّحُ كَالزَّهْرَةِ

وأن حَياتِي قد أَفْعَمها نَبْعٌ خَفِيٌّ.

وأغْنِيَاتكَ

مِثل طيُورِ قَرْيَةِ الثَّلجْ المَهْجُوَرَةِ

تَطِير

لِتَبْني عُشَّها في قَلْبِي

هَرباً مِن جَوّ إبريل الفَاتِرِ.

وإني لَسعِيدٌ

بانتِظَارِ المَوْسِمِ الجَمِيلِ..

16

كَانُوا يَعْرِفُونَ الطَّرِيقَ

فَجَاؤُا للبَحْثِ عَنْكَ

عَبْرَ الدَّرْب الضَيِّقِ

ولَكِنَّني كُنْتُ أَجُوبُ آفاقاً بَعِيدَةً

وأَضْرِبُ في غَيَاهِبِ اللَّيْلِ

لأَنَّني جَاهِلُ

ولَم أتَلقَّ عِلْماً كَافِياً

حَتَّى أَخْشَاكَ فِي الظَّلاَمِ

وبِذَلِكَ بَلَغْتُ بَابَكَ

دُون أنْ أَدْرِي

وقَد لاَمَنِي الحَكِيمُ وطَرَدَنِي

لأَنِّي لَم أَسلُكْ إِلَيْكَ الدَّرْبَ الضَيِّقَ

وَكِدْت أَنْصَرِفُ

والشُكُوكُ تُسَاوِرُ نَفْسِي

ولَكِنَّك أَمْسَكْتَ بِي

فَكَان عُنْفُ احتِجَاجاتهم ضدِّي

يَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ

17

قَالَت لِي الغَمَامَةُ

إنَّني أتَبَدَّدُ

وقَال لي اللَّيْلُ:

إِني أَغُوصُ فِي أَعْمَاقِ الفَجْرِ المُلْتَهِبِ

وقَال لِي الأَلَمُ:

إني أَظَلُّ عِنْد قَدَمَيْكَ في صَمْتٍ عَمِيق ،

وقَالتِ لِي الحَيَاةُ:

إِني أَمُوت عِنْد مُنْتَهى الكَمَالِ

وقَالت لِي الأرْض:

إن أَنْوارِي تُقَبِّلُ أَفْكَارَكَ كُلَّ حِين

وقَال الحُبُّ:

إن الأَيامَ تَمْضِي ولَكِنَّني انتَظِرُكَ

وقَال المَوْتُ:

إِني أَدْفَعُ بِزَوْرَقِ حَيَاتِك عَبْرَ البَحْرِ . .

(18)

كَلاَّ . . لَيْسَ من أَجْلِكَ

يَتَفَتَّحُ البُرْعُمُ

هُزَّهَ

اضْرِبْهُ

فَلَن يَكُونَ في وِسْعِكَ أن تَجْعَلَهُ يَتَفَتَّحُ

إِن لَمْسَتَكَ تُشَوِّهُهُ

فِي وُسْعِك أَن تُمَزِّقَ أفوْافَه

وتَرْمِيَها قِطْعَةً قِطْعَةً فَوْقَ التُّرابِ

ولَكِنِ الأَلْوانَ لَن تَظْهَرَ

ولَن يَضُوعَ الأَرِيجُ

آه ، لَيس مِن أَجْلِكَ يَتَفَتَّح البُرْعُمُ

فَيَصِير زَهْرَةً

إن الذي يُفَتِّحُ البُرْعُمَ
يَفْعَلَ ذَلِك بِيُسْرٍ وبَسَاطَةِ
إِنَّه يُلْقِي عَلَيْهِ نَظْرَةً
فَيَجْرِي لَهَا نَسَغُ الحَيَاةِ في عُروقِهِ
وعَلَى أَنْفَاسِه
تَبْسطُ الزَّهْرَةُ أَجْنِحَتَها
وتَتَمَايَلُ مَع الرِّيحِ
وتَنْبَثِقُ الألْوَان عَفْواً
مِثْلَ الرَّغَبَات الحَيَّة
والشَّذَى يَشِي بِسِرِّهِ الجَمِيلِ
إِن القُدْرَة التِي تَفْتَح البُرْعُمَ
تَفْعَلُ ذَلِك بِبَسَاطَةِ ويُسْرٍ.

(19)

حِين قَطَفَ البُسْتَانِيُّ (سوداس)

مِن حَوْضِهِ

آخرَ أَزْهَارِ اللُوتَسِ البَاقِية

من اجْتِيَاح الشِّتَاءِ

وتَوَجَّه إلى القَصْرِ المَلَكِيّ

لِيَبْعِها لِلمَلِكِ

قَابَلَ في طَرِيقَةِ مُسَافِراً قَالَ لَه :

حَدِّدْ سِعْرَكَ لآخِرِ زَهَرَاتِ اللوتس

إنّي أُرِيدُ تَقْدِيمَها

إلى الإآله بُوذَا

فَقَالَ سُودَاسُ .

إِذَا نَقَدْتَنِي (مَاشَا) ذَهَبِيَّةً

فَإِنَّها سَتَكُون لَكَ

ودَفَعَ المُسَافِرُ الثَّمَنَ

وفي تِلْكَ اللَّحْظَة خَرَجَ المَلِكُ

وأَبْدَى الرَّغْبَةَ في شِرَاء الزَّهْرَةِ

إذ كَان مُتَوَجِّها هُو الآخَر لِزِيَارَةِ بُوذا

وقَد قَدَّر أنَّه سَيكُونُ جَمِيلاً

أن يَضعَ عِنْد قَدَمَيْ بُوذَا

هَذِه الزَّهْرَة النَّادِرَةَ التي نَوَّرت في الشِّتَاءِ

وعِنْدَما قَالَ لَهُ البُسْتَانِيّ إنَّه عَرَضَ

مَاشَا ذَهَبِيَّة ، عَرَض الـمِلكُ

عَشْرَ مَاشَاتِ ، ولَكِن المُسَافِرَ

ضَاعَفَ الثَّمَنَ

وحينئذٍ فَكَّر البُسْتَانِيُ الجَشِعُ

فِي أنَّه سَيَنَالُ رِبْحاً أَوْفَرَ

مِن ذَلِك الرَبّ الذِي تَنَافَسَا

على إهْدَائِهِ الزَّهْرَة

فَانْحَنى البُسْتانِي وقَالَ :

لاَ أستَطِيعُ بَيْعَ زَهْرَةِ اللُوتَس .

وفي الظِلّ الصَّامِتِ لِغَابَة المَانْجَا

الوَاقِعَةَ خَلْفَ أَسْوَار المَدِينَةِ
كان سُودَاسَ واقِفاً أَمَام بُوذَا
الذي كانَ يَجْثُمُ فَوْقَ شَفَتَيْهِ
صَمْتُ الحُبِّ
وفي عَيْنَيْهِ كَان يُشِعُّ السَّلاَمُ
مِثْل نَجْمَةِ الصَّباحِ الوَضِيئَةِ
في الخَرِيف الذِي بلَّلَهُ النَّدَى
وحَدَّق سُوَداس فِي وَجْهِ بُوذَا
وَوَضَعَ زَهْرَةَ اللُّوتس عِنْدَ قَدَمَيْهِ
وسَجَدَ فَوْقَ التُّرابِ
فابْتَسَم بُوذَا وسَأَلَهُ
مَا هِيَ أمْنِيَتُك يَا بُنيّ؟
فَهَتَفَ سُوَداس قَائِلاً :
آخِر لَمْسَةٍ مِن قَدَمَيْكَ

20

أَيُّهَا اللَّيْلُ

أَيَّها اللَّيْلُ المُحَجَّبُ

إِجْعَلْنِي شَاعِرَكَ

لَقد لَبِثَ أُنَاسٌ أَحْقَاباً طَوِيلَةً

مُعْتَصِمِين بالصَّمْتِ تَحْتَ ظِلاَلِكَ

فَدَعْني أغنِّي أُغْنِياتِهم

ولتُرْكِبْني عَرَبَتَكَ الخَالِيَةَ من العَجَلاَتِ

تِلك التي تَقْطَعُ هَذه العَوالِمَ دُونَ صَوْتٍ

أيها اللَّيْلُ

أَيُّهَا المَلِكُ عَلَى قَصرْ الزَّمَنِ

أَيُّهَا الغُمُوضُ الجَمِيلُ

كَثِيرَةٌ هي العُقُولُ المُتَطَلِّعَةُ

التي تسَلَّلَت خِلْسَةً إِلى رِحَابِكَ

وجَابَت أَرْكَان بَيْتِك المُظْلِمِ
بَحْثاً عَن جَوَابِ
وكَثِيرَةٌ هي القُلُوبُ التي أَصَابَتْهَا
أَيْدِي المَجْهُولُ
بِسِهَامِ الفَرْحَةِ
فَتَفَجَّرَت بالأُغْنِيَات البَهِيجَةِ
وهَزَّت أَرْكَانَ الظَّلاَم
إِنَّها تِلك الأَرواحُ المُؤَرَّقَةُ التي تُحَلِّقُ
في نُور النُّجُومِ
مُنْبَهِرَةً
بِالكُنُوزِ التِي عَثَرَتْ عَلَيهَا فَجْأَةً
إِجعَلْنِي شَاعِرَكِ أَيُّها اللَّيْلُ
شَاعِرَ صَمْتِكَ العَمِيقِ . .

(21)

فِي يَوْمٍ مِن الأَيَّامِ

سَأَلتقِي (بالحَيَاةِ) في أَعْمَاقِي
بالبَهْجَةِ التي تَخْتَفِي فِي حَيَاتِي
وَرَغْمَ أَن الأَيَّامَ
تُعَرْقِلُ خُطَايَ
بِغُبَارِهَا الخَامِلِ
فَقَد عَرَفْتُهَا فِي رُؤًى خَاطِفَةٍ
وَنَفَسُهَا المُتَقَطِّعُ نَزَلَ عَلَيَّ
جَاعِلاً أَفْكَارِي لِبُرْهَةٍ قَصِيرَةٍ
مُعَطَّرَةً .
سَأَلْتَقِي فِي يَوْمٍ مِن الأَيَّامِ
بِالبَهْجَةِ التي تَسْكُنُ دُونَ صُحْبَتِي
خَلْفَ حِجَابِ النُّورِ
وسَوْفَ أَظَلُّ في وَحْدَتِي الفَيَّاضَةِ
حَيْثُ تُرَى كُلّ الأَشْيَاءِ
كَما يَرَاهَا الخَالِقُ نَفْسُهُ .

(24)

اللَيْلُ حَالِكٌ

ونَوْمُك عَمِيقٌ

في صَمْت وُجُودِي

استَيْقِظ

يا عَذَابَ الحُبّ

لأَني لاَ أَعْرِفُ كَيْفَ أَفْتَحُ البَابَ

وأَقِفُ خَارِجَهُ

إن السَّاعَات لَمُنْتَظِرَةٌ

والنُّجُوم سَاهِرَةٌ

والرِّيح سَاكِنَةٌ

والصَّمْتُ ثَقِيلٌ عَلَى قَلْبي

فاستيقِظْ

يا عَذَابَ الحُبِّ

وَامْلأْ كَأَسي الفَارِغَةَ
ودَغْدِغ اللَّيْلَ
بِنسَمَاتِ أُغْنِيةٍ .
عُصْفُورِ الصَّباحِ يُغَنِّي
فَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْهُ أَنْبَاءُ الصَّباحِ
قَبْلَ بُزُوغِهِ، حِينَ مَا يَزَالُ مَارِدُ الليل
يَلُفُّ السَّمَاءِ في أَرْدِيَتِهِ
البَارِدَةِ السَّوْدَاء؟
خَبِّرْنِي يَا عُصْفُورَ الصَّباحِ
كَيْف يَسْتَطِيعُ رَسُولُ الشَّرْقِ
أَن يَتَغَلْغَلَ في أَحْلاَمِكَ
عَبْر لَيْلَيْنِ مُضَاعَفَيْن
لَيلِ السَّمَاء ولَيْل الأَوْراقِ

(25)

إن الكَوْنَ لاَ يُصَدِّقُكَ حِين تُغَنِّي

إن الشمْسَ تَزْحَفُ واللَّيْلُ يُوَلِّي

فاستَيْقِظ أَيّها النَائِمُ

وَاكْشِفْ جَبْهَتك

انتِظَاراً لِقُبْلَةِ النُّور الأُولَى

وَلْتُغَنِّ مع عُصْفُور الصَّباح

في أَمَل بَهِيج .

(26)

المُتَسوِّلُ الذي في أَعْمَاقِي

رَفعَ يَدَيْهِ المُتَواضِعَتَيْن

إِلى السَّمَاءِ الخَالِيَة مِن النُّجُومِ

وَصَرَخ في أُذنِ اللَّيْلِ

بِصَوْتِهِ الوَاهِنِ الضَّعِيفِ

مُتَوَجِّهاً بِصَلَواتِهِ

إِلى الظُّلْمَةِ العَمْيَاءِ التي تَمْتَدُّ

مِثلَ إلَه سَقَط في سَمَاءٍ مُوحِشَةٍ
بِآمالِها الضَّائِعَةِ
وأَخَذَ صَوْتُ الرَّغْبَةِ
يحومُ حَوْلَ هَاوِيَة اليَأس
مِثْلَ طَائِرٍ مُرْتَعِش
يُحَلِّقُ حَوْلَ عُشِّهِ المَهْجُورِ
ولَكِن، حِينَ أَلْقَى الصَّباحُ مَراسِيهِ
على حَافَّةِ الشَّرْق
قَفَز المُتَسَوِّلُ الذي في أَعْمَاقِي
صَارِخاً:
مَا أَسْعَدَني بِحَظِّي!
لَقد رَفضَنِي اللَّيْلُ الأَصَمّ
وَتَكشَّفَت خزَائِنُه عَن خُوَاء.
وصَرَخَ:
أَيَّتُها الحَياةُ

أيها النُّورُ

مَا أَغْلاَكُمَا!

ومَا أَغْلَى الفَرْحَةَ التي عَرَفْتُها

في النِّهَايَةِ !..

27

كَانَ النَّاسِكُ سَنَاتَان

يَسْبَحُ عِنْدَ ضِفَّة نَهْر الكِنْج

حِين اقْتَرَب مِنه بَرْهَمِيٌّ رَثُّ الثِّيَابِ قَائِلاً:

إِنِّي فَقِيرٌ. سَاعِدْنِي

قَالَ سَنَاتَان:

كُلُّ مَا أَمْلِكُه هُو هَذا الوِعَاءِ الذِي أَجْمَعُ

فِيهِ الصَّدَقَاتِ. وقَد أَعْطَيْتُ كُلَّ مَا عِنْدِي

قال البَرْهَمِيّ:

لَقَد بَدَا الإِلَه (شِيفا) في حُلْمِي ونَصَحَنِي

بِالتَّوَجُّه إِلَيْكَ

وتَذَكَّر النَّاسِكُ سَنَاتَان فَجْأَة

أنَّه قَد التَقَطَ حَجَراً نَفِيساً لاَ يُقَدَّر بِثَمَنٍ

بَيْنَ صُخُور ضِفَّة النَّهرِ

وأَخْفَاهُ في التُّرابِ تَوَقُّعاً لِحَاجَةِ

بَعْضِ النَّاس إِلَيْهِ في يَوْمٍ مِن الأَيَّامِ

وأَرْشَدَ البَرْهَمِيَّ إِلى المَكَانِ

حَيْثُ حَفَر، وفِي دَهْشَةٍ

عَثَر عَلَى الحَجَرِ الثَّمِين

وجَلَسَ البَرْهَمِيُّ عَلَى الأَرْضِ

يَتَأَمَّلُ في صَمْتٍ وسُكُونٍ

حَتَّى غَربتَ الشَمْسُ خَلْفَ أَغْصَان الشَّجَرِ

وعَادَ الرُّعَاةُ إلى بُيُوتِهِم

يُسُوقُون قُطْعَانَهم

وحِينَئذ نَهَض، وأَقْبَل بِهُدُوء

عَلى سَنَاتَان وقَال لَهُ :
أَيُّها المُعَلِّمُ ، أعطِني قَليلاً من الثَّرْوةِ
التي تَحْتَقِرُ ثَرَوَاتِ العَالَم ،
قَال ذَلك ، وأَلْقَى ذَلك الحَجَرَ
الثَّمِين في المَاءِ .

(28)

مَرَّات عَدِيدَةً
وقَفَتُ عِنْد بَابكَ
مُلْتَمِساً المَزِيدَ، ثُمَّ المَزِيدَ مِن عَطَائِكَ

ولَقد أَعْطَيْتَني
ومَنَحْتَنِي
أَحْيَاناً بِمقْدَارِ
وأَحْيَاناً بِكَرَم بَاهِرٍ
وتَنَاوَلْتُ بَعْضَ مَا مَنَحْتَنِي

وتَرَكْتُ البَعْضَ الآخَر يَتَسَاقَطُ
فَبَعْضُ هَذِه العَطَايا أَثْقَلَت يَدِي
وصَنَعَتُ مِن بَعْضِها الآخر
دُمىً حَطَّمْتُهَا حِين بَرِمْتُ بِهَا
وقَامَت مِن الحُطَام
وْمِن عَطَايَاكَ الوَافِرَةِ
أَكْوَامٌ ضَخْمَةٌ
حَجَبَتْك عَنِّي
والانتِظَار المُرْهِقُ مَزَّقَ قَلْبِي
وتَعَالَت صَرْخَتِي
خُذْ عنِّي خُذْ
والآن فَوْراً
دَمِّر قَدحَ الشَحَّاذِ المُتَسَوِّلِ
وَاطْفِيء هَذا المِصْبَاحَ المِلْحَاحَ
السَّاهِرَ بِلاَ مَعْنَى

وَأمْسِكْ بِيدِي

وَاخْرُجْنِي مِن هَذا الرُكَامِ المُتَزايِدِ

من عَطَايَاكَ

وَارْفَعْنِي إلى اللاَّنِهَائِيَّة المُجَرَّدَةِ

لِحُضُورِكَ غَيْرِ المُتَوَّجِ . .

(29)

لَقَد وَضَعْتَنِي ضِمْنَ المَهْزُومِينَ

وإِنِّي لأَعْرِفُ أَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ قَدَرِي

ولا التَّوَقُّف عن المُقَامَرَةِ

سَأُلْقِي بِنفسِي في الوَحلِ

من أَجْلِ أن المْسَ القَاعَ

وأَرَاهِن على دَمَارِي

وسَأراهِنُ بِكُلّ مَا أَمْلِكُ

وحِين أَفْقِدُ الفِلْس الأَخِيرَ

سَأُوقِنَ حِينَذَاكَ

بِأَنَّني انتَصَرْتُ

بِفَضْلِ هَزِيمَتي التَّامَّة . .

30

ابتسَامَةٌ من البَهْجَةَ عمَّت أَرْجَاءَ السَّمَاءِ

حِين كَسَوْتَ قَلْبِي ، أَسْمَالاً بَالِية

وأَرْسَلْتَهَ لِيَسْتَجْدِي في الطُّرُقَاتِ .

لَقَد تَنَقَّل مِن بَابٍ إلى بَابٍ

ولَكِن مَا يَكَادُ وِعَاؤُهُ يَمْتَلِىءُ

حَتَّى يُسْرَقَ .

وفي نِهَايَة اليَوْمِ الطَّوِيلِ

وَصَل إِلى بَابِ قَصْرِكَ

رَافِعاً وِعَاءَه الحَقِير

وحِينئذ نَزَلْتَ مِنَ عَلْيَائِكَ

وأَخَذْتَ بِيَدِهِ

ثُمَّ أَجْلَسْته عَلَى العَرْشِ .

حِينَ فكَّرْتُ في أن أَصُوغَ لَكَ

نَمُوذَجاً مُقْتَبَساً من حَيَاتِي

يَعْبُدُك النَّاسُ فِيهِ

تَنَاوَلْتُ تُرابِي ورَغَبَاتِي

وكُلَّ أَوْهَامِي وأَحْلاَمي الزَّاهِيَةَ المُلَوَّنَة

وحِينَ طَلَبْتُ إِلَيْكَ

أن تَصُوغَ مِن حَيَاتي نَمُوذَجاً مُقْتَبَساً من قَلْبكَ

رَأَيتُكَ تَتَنَاوَلُ نَارَكَ وقُوَّتَكَ

وحَقِيقَتَكَ ونِعْمَتَكَ وسَلاَمَكَ .

(31)

حِين اجتَاحَت المَجَاعَةُ بلدة شَارفَسْتِي

سَأَلَ بُوذا أتْبَاعَه :

مَن مِنْكُم سَيُطْعِمُ الجَائِعِينَ؟

فَحَنَى الثَّرِيُّ (راتناكار) رأسَهُ ثُمَّ قَالَ :

إن ثَرْوَتِي كُلَّها لاَ تَكْفِي لإِطْعَامِ الجَائِعِينَ

أمَّا (جَايَس) قَائِد جَيْشُ المَلِكِ فَقَال :

وَدِدْتُ لَو بَذَلْت دَمِي ، ولَكِن لاَ يَتَوَفَّرُ

طَعَامٌ كَافٍ في بَيْتِي .

وتَنَهَّدَ (دارما بال) الذي يَمْلِك أَراضِيَ شَاسِعَةً :

إن شَيْطَانَ الجَفَافِ قَد أَصَاب حُقُولي

كُلَّها بِالجَفَافِ. ولاَ أَدْرِي كَيْفَ أُسَدِّدُ

الضَّرَائِبَ للمَلِكِ

وعِنَدئِذٍ نَهضت (سوبريا) ، ابنَةُ المُتَسَوِّلِ

وقَالَت بِلُطْفٍ . أَنَا سَأَطْعِمُ الجَوْعَى

وَاستَغْرَبَ الجَمِيعُ قَوْلَها وَهَتَفُوا

بِها مُتَسائِلِين . . كَيف يُمْكِنُك تَحْقِيقُ

هَذَا النَّذْر؟

قَالت (سُوْبِريَا):

إنِّي أَفْقَرُكُم جَمِيعاً . . وتِلك هِي قُوَّتي

أَمَّا المَالَ ومَخَازِنُ القَمْحِ فَسأَجِدُها

في بَيْتِ كُلِّ وَاحِدِ مِنكم .

(32)

لَمْ أَعْرِفْ مَلِيكِي

وحِينَ طَلَب مِني زَكَاتَهُ

ظَنَنْتُ أنَّه يُمْكِنُني الاختِفَاءُ

وتَرْكُ دُيوني قائِمَةً

واختبَأْتُ وأَمعَنْتُ في الاخْتِبَاءِ

خَلْفَ العَمَل اليَوْمِيّ

وسِرْتَ وَرَاء أَحْلاَم لَيْلي

ولَكِنَّ طَلَبَاتِهِ كَانَت تُلاحِقُنِي

وتُتَابعُ كُلَّ نَفَسٍ مِن أَنْفَاسِي
وهَكذا أَدْرَكْتُ أنَّه يَعْرِفُني
وأنَّه لَيس لِي مَكَانٌ أَدَّعِيهِ
والآن فَإنِّي أَرْغَبُ في أَن أَضَعَ
كُلَّ مَا أَمْلِكُ تَحْت قَدَمَيْهِ
لِكَي أَظْفَر بِحَقِّ الحُصُولِ
على مَكَانٍ في مَمْلَكَتِهِ . .

34

أعْلَنَ خَادِمُ المَلِك :
يَا مَولاْي . . إِن القِدِّيسَ (نُورا تَّام)
لَم يَتَنازَلْ يَوْماً لِلدُّخُولِ فِي مَعْبَدِكَ المَلَكِي
إنَّه يُرَتِّلُ صَلَوَاتِهِ المَرْفُوعَةَ إِلى اللَّهِ
تَحْتَ الأَشْجَار التِي تَحُفُّ بِطُول الطَّرِيقِ
والمَعْبَدُ خَالٍ مِن العَابِدِين

وهُمَ يَتَجَمَّعُونَ حَوْلَه كَمَا يَتَجَمَّعُ النَّحْلُ
حَوْلَ زَهْرَةِ اللُّوتَس البَيْضَاءِ
غَيْر عَابِىءٍ بِجَرَّةِ العَسَلِ الذَّهَبِيَّةِ.
وأحَسَّ المَلِكُ بِهَذِهِ المُعَارَضَة
فَذَهب إلى المَكَانِ الذي يَجْلس فِيه
نُورَاتَّام، فَوْق الأَعْشَاب، وسَأَلَهُ:
أَيُّها الأب
لِمَاذَا تَتَخَلّى عن مَعْبَدِي ذِي القُبَّةِ
الذَّهبِيَّة، وتَجْلِسُ هنا فَوْقَ التّراب
لِتُصَلِّي حُبَّاً لِلَّه؟
فَأجَاب نُوراتَّام:
لأَنَّ اللَّهَ لاَ يُوجَدُ فِي مَعْبَدِكَ
فَنَظَر إليه المَلِكُ مُتَجَهِّماً وقَال:
أَتَعْلَم أَنَّه كَلَّفَنِي عِشْرينَ مِلْيُون
قِطْعَةٍ ذَهَبِيَّةٍ بِنَاءُ ذَلِك العَمَل الرائع؟

وأنَّه قُد كُرِّس لِلَّه بِمَرَاسِمَ غَالِيةٍ .

قَال نُور اتَّام :

أَجَل . . إِنّي أَعِرْفُ ، وأَعْرِفُ أَنَّه

في ذَلِك العَام ِ كَان آلافُ مِن رعَايَاكَ

الذين حُرِقَت بُيُوتُهم يَطْلُبُون العَوْنَ

عَبَثاً أَمَامَ بَابِكَ

وقَال اللَّهُ حِينَذَاك :

إن المَخْلُوقَ الضَّعِيفَ الذِي لَمْ يَسْتَطِعْ

أن يُقَدِّم مَأْوَى لإِخْوَانِه ، يُرِيدُ اليَوْمَ

أَن يَبْنِي مَعْبَدِي ؟

وأَقَام من ذَلِك الوَقْت مَعَ النَّاس ِ

الذينَ لاَ مَأْوَى لَهُم ، تَحْتَ الأَشْجَار

المُمْتَدَّةَ عَلى الطَّرِيق .

إن تلك القُبَّةَ الذَّهبِيَّةُ مُنْتَفِخَةُ

بِكِبْرِيَائِكَ الفَارِغَةِ !

وصَرَخ المَلِكَ غاضِباً
أتْرُك بَلَدِي
فَأَجَابَه القِدّيس بِهُدُوءٍ:
أَجَل، شَرَّدْنِي أَنَا الآخَر
كَمَا شَرَّدْتَ إِلَهِي.

(35)

البُوقُ جَائِمٌ فَوْقَ التّراب
والرِّيحُ مُتْعَبَةٌ
والنُّورْ قَد مَاتَ
آه يَا لَهُ مِن يَوْمٍ فَظِيع!
تَعَالَوْا أَيُّها المُحَارِبُونَ
حَامِلِين أَعْلاَمَكُم
وتَعَالَوْا أَيُّها المُنْشِدُون
بِأَنَاشِيدِكُم الحَرْبِيَّةِ

تَعَالَوْا يَا حُجَّاجَ الزَّحْفِ
وعَجِّلُوا في خَطْوِكُم
فَإِن البُوقَ الجَاثِمَ فَوْقَ الأَرْضِ
في انتِظَارِكُم
كُنْتُ مُتَوَّجِهاً إِلى المَعْبَدِ
حَامِلاً هِبَاتِي المَسَائِيَّةَ
بَاحِثاً عن مَكَان أَسْتَرِيحُ إِليه
بَعْدَ عَنَاءِ العَمَلِ اليَومِي
آمِلاً أَن تُشْفَى جِرَاحِي
وتُغْسَلَ اللَّطَخَاتُ عن ثِيَابِي
حِينَ صَادَفَنِي بُوقُكَ
الجَاثِمُ فَوْق التّراب
أَلَمْ تَحِنْ بَعْدُ السَّاعَةُ التي
أُوقِد فِيها عَادَةً شَمْعَتِي المَسَائِيَّةَ؟
أَلَم يُغَنِّ اللَّيْلُ بَعْدُ تَرنِيمَةَ

النَّوْمِ للنُّجُومِ ؟

آه ، أنتِ أَيَّتها الوَرْدَةُ الحمراء

مِثْلَ الدَّمِ

إن أحلام نَوْمِي

قد ذَبُلَت وشَحُبَت

إنّي لَعَلَى يَقِينٍ

بأن طَوافِي قَد انتَهَى

وأن دُيُوني قَد سُدِّدَتْ

حِين وَقَعْتُ صُدْفَةً عَلى ذَلِك

البُوقِ الجَاثِم فَوق التُّراب .

فَهُزَّ قَلْبي النَّاعِسَ

بِسِحْرِكَ الشَّاب

لِتَسْتَيْقِظَ بَهْجَةُ الحَيَاة فِي نَفسي

وتَتَأَجَّج .

وسِهامُ اليَقْظَةِ تَطِيرُ عَبْرَ قَلْبِ اللَّيْلِ

ورعْشَةٌ من الرُّعب تُهُزُّ العَمَى

والشَّلَلَ .

لَقد جِئْتُ لِكَي أَرْفَعَ

بُوقَكَ الجَاثِمَ في التُّراب

فَالنَّوْمُ لَمَ يَعُدْ مُلاَئِماً لِي

سَأَزْحَفُ تَحْتَ سَحَابَةٍ من السِّهام

بَعْضُهُم سَيَخْرُج مُسْرِعاً من بَيْتِه

ويَسِير إلى جَانِبِي

وبعضُهم سَوْف يبكي

وبَعْضُهم سَيَتقَّلب في أسيرَّتِه

ويَغْرَق فِي أَحْلام رَهِيبَةٍ

ذَلِك لأَنَّه في هَذه اللَّيْلَة

سَيُنْفَخُ في بُوقِكَ

لَقد طَلَبْت إِلَيْك السِّلْمَ

لِكَي أَجِدَ فَقَط العَار

والآن أَمْثُلُ أَمامَكَ

فَأَعِنِّي على ارْتِدَاء الدِّرْعِ

وأن ضَرَبَاتٍ قَاسِيَةً من الألَمِ

سَتُلْهِبُ حَيَاتي

وأَن يَدُقَّ قَلْبِي في أَلَمِهِ

طَبْلَ النَصر

وسَتَفْرَغُ يَدَاي مِن كُلّ شَيء

مِن أَجل أَن تُمْسِكَ بِبُوقِكَ

36

أَيُّهَا الجَمِيلُ

حِين استَوْلى عَلَيْهم جُنُونُ الفَرَح

فَرَفَعُوا الوَحلَ يُلَطِّخُونَ بِه ثَوْبِكَ

حَزَّ ذَلِك في نَفْسِي

وَهَتَفْتُ بِكَ

خُذْ سَوْطَ عَذَابِكَ وَاقْتَصَّ مِنْهُم

إِن نُورَ الصَّبَاحِ أَعْشَى عُيُونَهم

المُحْمَرَّةَ بِفُجُورِ اللَّيْلِ

وتَعَالَت أَنْفَاسُهم المُحَرِقَةُ عَلَى أَرِيجِ السَوْسَنِ

الأَبْيَض

وكانت النُّجُومُ عَبْرَ عُمْقِ الظُّلْمَةِ المُقَدَّسَةِ

تَتَأَمَّلُ قَصْفَهَمُ الصَّاخِبَ

أولئِك الذِين رَفَعُوا الوَحل

لِيُلَطِّخُوا بِه ثَوْبَكَ

أَيُّها الجَمِيلُ

وكَان عَرْشِ قَضائِكَ يَرْتَفِع في حَدِيقَة الزُّهُورِ

في نَغَمَات أَلحْانِ طُيورِ الرَّبِيعِ

وفي ضِفَافِ النَّهْرِ الظَّلِيلَةِ

حَيثُ حَفِيفُ الشَّجَر يَتجَاوَبُ

مَعَ هَدِيرِ الأَمْوَاجِ

أيهِ أيُّها العَشِيق

في غيِّهِم نَضَبَت الرَّحْمَةُ .

وفِي جُنْحِ الظَّلامِ

انتزَعُوا حلِيَّك لِكَي يُزيِّنُوا

بِهَا نَزَواتِهم .

وحِين ضَرَبُوكَ وآلمُوكَ

أَحْسَسْتُ بالطَّعَنَاتِ في جَسَدِي

وهَتَفْتُ بِكَ

خُذْ سَيْفَكَ يا عشِيقِي

واقْتَصَّ مِنْهُم

وكان عَدْلُك سَاهِراً

لَقد ذَرَفَت إِحْدَى الأُمَّهات دُمُوعَها

عَلَى وَقَاحَتِهِم

والإيمان الخَالِد لإِحْدَى العَشِيقَاتِ

قَد أَغْمَد سِهَامَ ثَوْرَتِهم في جِرَاحِهِم

نَفْسِهَا .

لَقد كَان قَصَاصُكَ في الأَلَم ِ الصامت

لِلحُبّ اليَقْظَانِ

في حُمْرَةِ الطُّهْرِ

في الدُّموعِ اللَّيْلِيَّةِ

لِلإِنْسَانِ اليَائِسِ

وفي النُّور الشَّاحِبِ لِغُفْرَانِ الصَّبَاح.

أيُّها الرَّهِيبُ . . إِنَّهم في جَشَعِهم

الكَرِيهِ قَد هَجَمُوا عَلى خزَائِنِكَ

لِكَي يَنْهَبُوا مَا لَدَيْكَ

ولكَنَّ عَبْءَ الغَنَائِم كَان ثَقِيلاً

أَثْقَلَ مِن قُدْرَتِهم عَلى حَمْلِهِ

حِينَئِذ هَتَفْتُ بِكَ اغْفِرْ لَهُم

أيُّها الرَّهِيب

فَتَفَّجَر صَفْحُكَ في عَواصِف

أَلْقَت بِهِم إِلى الأَرضِ
وتَعَثَّرت أَسْلاَبُهم في التّراب
لَقَد كَان غَفُرَانُك في صَخْرَةِ الرعد
وفي مَطَر الدَمِّ
وفي لَوْن الغُروبِ الخَضِيبِ
الغَاضِبِ

37

كان (أُوباغُوبتا) تِلْمِيذُ بُوذَا
مُضطجِعاً فَوْق التّرابِ
قُرْب سُورِ مَدينةِ (ماتورا)
وكانت المَصابِيحُ كُلُّها مُطْفَأَةً
وكُلُّ النُّجُوم مُخْتَبِئَةً
في سَماء أَغُسْطَس المُظْلِمَةِ.
فَمَنْ هَذِه التي لاَمَسَت بِخَلاخِيلِها

صَدْرِه فَجْأَةً؟
استَيْقَظَ مَذْعُوراً
والنُّور المُرْتَجِفُ المُنْبَعِثُ من مِصْبَاح امْرَأَةٍ
قَد بَهَر عَيْنَيْهِ الطَّافِحَتَيْنَ بالتَّسَامُحِ
والغفْرَان.
كَانت الرَّاقِصَة
وقد غطَّتْهَا الجَواهِر والحُلِيُّ
وقد التَفَّتِ بُبُرْنُسٍ أَزْرقَ شَاحِبٍ
نَشْوَى بِخَمْر شَبَابِهَا الفَيَّاضِ
وخَفَّضَتَ مِصْبَاحَها
فَرَأَى مُحَيَّاها الشَّابَ وقَد اكتَسى
مسْحَةً من جَمَالٍ مُتَواضِعٍ
وقَالتْ لَه:
اغْفَرِ لي أيُّها الفَتَى النَّاسِكُ
إِنِّي أَتَوَسَّل إِليكَ أَن تَأْتِي إلى بَيْتِي

فَهذِه الأَرْضُ الجَرْدَاءُ

ليست فِرَاشاً لاَئِقاً بِكَ

فَأَجَابَها النَّاسِكُ :

أَيّتُها المرأةُ ، امضي في طَرِيقِكِ

وحِينَ يَأزف الوَقْتُ، سآتِي

إِلَيْكِ.

وفَجْأَةً

كَشَفَ اللَّيْل الحَالِكُ عن أنْيَابِه

فِي بَرِيقِ الرَّعْدِ

وزَمْجَرَت العَاصِفَةُ في أَرْجَاء السَّمَاءِ

وارتَجَفَت المَرْأةَ رُعْباً

وَعَلى حَافَّةِ الطَّرِيقِ

كَانت أَغْصَانُ الأَشْجَار تَنُوءُ بِزُهُورِهَا

ونغماتٌ جَذْلَى تَنْسَابُ من نَاي

بَعِيدٍ

في جَوِّ الرَّبيع الفَاتِرِ
وَتَوجَّهَ النَّاسُ إلى الغَابَاتِ
احتِفَالاً بِعيدِ الزُّهورِ البَهيجِ
وفي كَبِدِ السَّماء، كَان البَدْرُ
يُحَلِّقُ في ظِلاَل المَدِينَةِ الصَّامِتَةِ.
كَان النَّاسك يَسِيرُ في الطَّرِيقِ المَهْجُورَةِ
وفَوق رَأسِهِ كانت طيورُ الكُوس
الوَلْهَى تُرَدِّدُ شَكَاتَها السَّاهِرَة
عَلى أَغْصَان المَانْجَا
واجتاز أوباغوبتا بَوَّابَات المَدِينَةِ
وَوَقَفَ عِنْد قَاعِدَة القَلْعَةِ.
مَنْ هِي هَذه المَرْأة التي تَضْطَجعُ
في ظِلاَل السُّور، وقَد أَصَابَها
الطَّاعوُن الأَسْوَدُ في جسدها
المَكْسُوّ بِالجِرَاحِ، وقَد عَجَّلُوا بِإبْعَادِهَا

عن المَدينَة؟

وجَلَس النَّاسِكُ إلى جِوَارِهَا

وَاضِعاً رأسَها فَوْقَ رُكْبَتَيْهِ

مُبَلِّلاً شِفَاهَها بالمَاءِ

ودَهَن جَسَدَها بالمَرْهَم .

سَألت المَرْأة :

مَنْ أَنْتَ . . أيُّها المَخْلُوقُ الرَّحِيم؟

فَأَجَابَها النَّاسِكُ الشَّاب

وأخِيراً أزفَ الوَقْتُ

الذي أزورُكِ فِيه

إنَّني هُنَا قَرِيبٌ مِنْكِ

38

لَمْ يكن هَذَا مُجَرَّدَ عبث غرامي بَيْنَنَا

يَا حَبِيبِي

لَقَد عَصَفَت بِي

مِئَةَ مَرَّةٍ

اللَّيالي الصَّارِخَةُ بالعَواصِفِ

مُطْفِئَةً مِصْبَاحِي

وتَجَمَّعَت الشُّكُوك القَاتِمَةُ

لِتَمْحُوَ جَمِيع النُّجُومِ من سَمَائِي .

مِئَةَ مَرَّةَ

حَطَّم النَّهْرُ سُدُودَه

تَارِكاً لِفَيضَانِه جَرْفَ مَحَاصِيلِي

فَمَزَّقَت الشَّكْوَى واليَأْسُ

أَرْجَاء سَمَائِي

من القِمَّة حَتَّى القَاعِ

وقَد تَعلَّمْتُ مِن ذَلِك :

أن الضَّرَبَاتِ المُؤْلِمَةَ

قَد تَأْتِي مِن حُبِّكَ

ولَكِن لاَ يَأْتِي مِنْه

جُمُودُ المَوْتِ القَاتِلِ

(39)

إِنَّ الجدارَ لِيَنْشَقُّ

وَيَنْدَفِعُ النُّورُ

كَأَنَّه الضّحْكَةُ القُدُسِيَّةُ

النَّصْرُ لَك . . أَيُّها النُّورُ

إِن قَلْبَ اللَّيْلِ لَمُوْجَعٌ

فَاشْطُر بِسَيْفِكَ اللاَّمِع البَتَّار

عُقْدَةُ الشَّكِّ ، والرَّغَبَات الحَائِرَةِ

النَّصْرُ لكَ

تَعَال أَيُّها العَنِيدُ

فِي نَصَاعَتِك البَيْضَاء

تَعال أَيُّها الرَّهِيب البَيَاضُ

أيُّها النُّور

إن طَبْلَكَ لَيُقْرَعُ مُوَاكِباً زَحْفَ النَّارِ

والشُّعْلَةَ الحَمْرَاءَ عَالِيَةٌ مَرْفُوعَةٌ

إِن المَوْتَ يَمُوتُ

في تَفَجُّرِ الرَّوْعَةِ .

40

أَيَتُّهَا النَّارُ

إِنَّني أَتغَنَّى بِانتِصَارِكِ

أَنْتِ صُوَرَةٌ مُلْتَهِبَةٌ للحُرِّية المُخِيفَة

إِنَّك تَمُدِّينَ ذِرَاعَيْكِ إِلى السَّمَاءِ

وتَلْمَسِينَ بِأَصَابِعِك الغَائِرَة

أَوْتَارَ المِعْزَف

إِنَّها لَرَائِعَةٌ ، مُوسِيقَى رَقْصَتِكِ

وحِين تُنْهَى أَيَّامِي

وتُفْتَحُ الأَبَوابُ

فَإِنَّك سَتَحْرِقِين خُيُوطَ يَدِي ورِجْلِي
فَتُصِير إِلى رَمَادٍ
ويَنْصَهِرُ جَسَدِي فِيكِ
مُؤَلِّفاً كَائِناً وَاحِداً
وستَعْصِفُ بي فَوْرَتُكِ الجُنُونِيَّة
وتلك الجَذْوَةُ المُتَّقِدَةُ التي كانت حَيَاتِي
سَتَلْتَهِبُ مُنْدَمِجَة فِي لَهِيبِكِ.

41

المَلاَّحُ في الخَارِجِ
يَمْخُرِ البَحْرَ العَاصِفَ في جُنْحِ اللَّيْلِ
والسَّارِية تَرْتَجِفُ تَحْتَ الرِّيحِ العَنِيفَةِ
التي تَفْتَحُ الأَشْرِعَةَ
والسَّمَاءُ وقَد عَضَّتْهَا أَسْنَانُ اللَّيْلِ
تَسْقُط فَوْقَ البَحْرِ المُتَسمِّمِ بالرُّعْبِ الأَسْوَدِ
وذُرَى الأَمْواجَ تَتَحَطَّم ضِدَّ الظَّلامِ اللاَّمَنْظُورِ

والمَلاَّح في الخَارِج

يَمْخُرُ البَحْرَ العَاصِفَ

المَلاَّح في الخَارِجِ

لاَ أَدْرِي لأَيِّ مَوْعِدٍ

يُوقِظُ اللَّيلَ بِمُفَاجَأة أَشْرِعَتِه البَيْضَاء

لاَ أَدْري في أي شَاطِيء سَيَرْسُو

لِيَبْلُغَ الرَّحْبَةَ الصَّامِتَةَ بِمَصْبَاحِها المُضَاء

حَيْثُ يَلْقَى تِلك التي تقتعد التّرابِ

في انتِظَارِهِ

أيّ هَدَفٍ هَذا الذي يَجْعَلُ قَارِبَه

غَيْرَ عَابِئٍ بالظُّلْمَة والعَاصِفَةِ؟

تُراهُ مُثقلاً بالجَواهِرِ أو اللآلى

كَلاَّ، إن المَلاَّح لا يَحْمِلُ مَعَه أَيَّ كَنْزٍ

ولَكِنَّه يَحْمِلُ وَرْدَةً بَيْضَاءَ في يَدِهِ

وأُغْنِيَةً على شَفَتَيْهِ

إِنَّهما لَها، لِتِلْك التي تَنْتَظِر وَحِيدَةً
في اللَّيل بِمِصْباحِها المُنِير
إِنَّها تَسْكُن في كُوخٍ
على حَافَّةِ الطَّرِيقِ المَهْجُورَةِ
وشَعْرُهَا المُبَدَّدُ يَتَطَايَرُ مَع الرِّيحِ
ويَحجُبُ عَيْنَيْهَا
والعَاصِفَةُ تُزَمْجِرُ عَبْرَ أبْوابِها المُشْرَعَةِ
ويَرْتَجِف النُّور في مِصْبَاحٍ
مُلْقِياً ظِلالاً على الجُدْرَان
وعَبْرَ عَويلِ الرِّيحِ كَانَت تَسْمَعُ صَوْتَه
يَترامَى إِلَيها وَيهْتِفُ بِاسْمِها
هِيَ المَجْهُولَة الاسم
لَقد أَقْلع المَلاَّح مُنذ زَمَن بَعِيدٍ
ويَنْبَغي أن يَمُرَّ وَقْتٌ طَوِيلٌ
قَبلَ أن يَنْبَلِجَ الصَّباحُ

ويأتي هُو لِيَطْرُقَ بَابَها

ولَن يَعْرِفَ أَحَدٌ بمَقْدَمِه

النُّور وَحْده هو الذي سيملأُ البَيْتَ

وسَيَكُون التّرابُ مُبارَكاً والقَلْبُ سَعِيدَاً

وكُلُّ شَكٍّ سَيَتَبَدَّدُ في صَمْتٍ

حِين يَبْلُغُ المَلاَّحُ الشَّاطِيء.

(42)

إِنِّي أَتَشَبَّثُ

بِهذِه العَوَّامَةِ الحَيَّةِ التي هي جَسَدِي

في المَجْرَى الضَيِّقِ لأَعْوامِي الأَرْضِيَّةِ

سَأَتْرُكُها بَعْد انتِهَاءِ العُبُورِ

ثُمَّ؟

لاَ أَدْرِي إِذا كَان النُّورُ والظَّلامُ

هُنَاكَ سَيَكُونَان نَفْسَ النُّورِ والظَّلامِ

إن المَجْهُولَ هُو الحُرِّيَةُ الخَالِدَةُ

وحُبُّه بَغِيضٌ إلى النَّفْسِ

إِنَّه يُحَطِّم الصَّدَفَةَ للحُصُولِ على اللُّؤْلُؤَةِ

السَّاكِنَة فِي سِجْن الظَّلاَمِ

إِنَّك لَتَتَأمَّلُ وتَبْكِي الأيَام الغَابِرَةَ

أيها القَلْبُ المِسْكِين

فَلْتَفْرَحْ ، إنّ أيَّاما أُخْرَى سَوْفَ تَأْتِي

لقد أَزِفت السَّاعة . . أيُّها الحَاجّ

وجَاءَت اللَّحْظَةُ التِي تَعْبُرُ فِيها

مُفْتَرَق الطَّرِيقِ

إنَّ وَجْهَهُ سَيَكُونُ سَافِراً

بِلاَ حِجَابٍ

وستَلْتَقِي بِهِ مَرَّة أُخْرَى

43

فَوْق ضَرِيحِ بُوذَا

شَيَّد المَلِكُ بِمِبسَار

مِحْراباً من المَرْمَرِ الأَبْيَض
تَحِيَّةً لِذِكْرَاه
وفي كُلِّ مَساءٍ
كَانَت زَوْجَاتُ المَلِكِ وبَنَاتُهُ
يَذْهَبْنَ لِيهبْنَ الزُّهُورَ ويُوقِدْنَ الشُّمُوع
وحِينَ أَصْبَحَ ابنُه مَلِكاً
مَحَا بِسَفْكِ الدِّمَاءِ عَقِيدَة الأَب
وجَعَلَ من كُتُبِه المُقَدَّسَةِ
أَلعَاباً نَارِيةً .
كان اليَومُ الخَرِيفيّ يَغِيبُ
وقد اقْتَرَبت سَاعَةُ العِبَادَةِ المَسَائِيَّةِ
وكَانت شِيرَامَاتي وَصِيفَةُ المِلِكَةِ
شَدِيدَةَ الإِيمَانِ بِبُوذَا
وبَعْدَ أَن اغْتَسَلَت بالمَاءِ المُقَدَّسِ
وزَيَّنَت الوِعَاءَ الذَّهَبِيَّ بالزُّهُورِ والشُّمُوعِ
رَفَعَت في صَمْتٍ عَيْنَيْها السَّوْدَاوين

نَحْو وَجْهِ المَلِكَةِ
فَارتَجَفَت المَلِكَةَ من الخَوْف وقَالت :
ألم تَعْلَمِي أَيّتُها الفَتَاة الغَبِيَّةُ
أن الإعْدَامَ هُو العُقُوبَةِ
التي تَنْتَظِرُ كُلَّ مَن يَحْمِلُ الهِبَات إلى هَيْكَلِ بُوذَا؟
تِلك هِي إرادَةُ المَلِكِ
فَانْحَنَت شِيرَامَاتي لِلمَلِكَةِ
وحِين خَرْجَت مِن غُرْفَتِها وَقَفَت أَمَام أميتا
عروس المَلِك الجَدِيدِ
وكانتَ أَمِيتَا قد وَضَعَت في حِضْنِها
مِرآتَها وأَخَذَت تَضْفِر غَدَائِرَهَا
السَّودَاءَ الطَّوِيلَةَ وتصْبَغُ
جَبْهَتَها بِسِيمَاءِ الحَظِّ الحَمْرَاءِ
وما كَادَت تُبْصِرُ الفَتَاة حَتى ارتَجَفَتْ
رُعْباً وصَرَخَتِ فِيهَا :

أيُّ هَوْلٍ سَتُلْحِقينَه بِي ، اغْرُبي عَنِّي
وكَانَتَ الأَمِيرةُ شُوْكَلاَ تَجْلِسُ
إلى النَّافِذَة تَقْرَأُ كِتَابَ مُغَامَرَاتٍ
على ضَوْءِ الشمس الغَارِبَةِ
وَقَفَزتْ مُنْتَفِضَةً حِينَ رَأَتْ
الفَتَاة أَمَامَ بَابِها حَامِلَة هِبَاتِها
المُقَدَّسَة . وسَقَط الكِتَابُ
في حِضْنِها وهَمَسَت في أُذْنِ شِيرَامَاتِي :
لاَ تُلْقِي بِنَفْسِكِ في أَحْضَانِ المَوْتِ
أَيَّتُها المَرْأَةُ الجَرِيئة .
وأَخَذَت شِيرَاماتي تَنْتَقِلُ مِن بَابٍ إلى بَابٍ
رَافِعَةً رَأْسَها صَارِخَةً
أَسْرِعْن يا نِسَاءَ البَيْت المَالِكِ
لَقد أزِفتْ سَاعَةُ عِبَادة سَيِّدِنَا)
فَأَغْلَقَ بَعْضُهُنَّ البَابَ في وَجْهِها

وغَمرَهَا البَعْضُ الآخَر بالشَّتَائِمِ

وكان آخرُ أَشِعَّة الشمسِ

يَغْرُبُ عن قُبَّة البُرْجِ البْرُونْزية

وظِلاَلٌ كَثِيفَةٌ تَخَيِّمُ عَلَى

زَوَايا الطُّرق

وضَجِيجُ المَدِينَةِ يَخْفُتُ

وطَبْلُ مَعْبَدِ (شِيفا) كَان يُعْلِنُ

سَاعَة صَلاَة الغروب .

وفي ظُلْمَةِ المَسَاءِ الخَرِيفِيّ العَمِيقِ

عُمْقَ البُحَيْرَةِ الصَّافِيَةِ

كانَت النُّجُومُ تَتلأَلأُ بِنُورِها

حِين صَعِد حُرَّاسُ حَدِيقَةِ المَلِكِ

وَرَأَوْا بَيْن الأَشْجارِ

صَفّاً من الشُّمُوعِ المُوقَدَةِ أَمَامَ هَيْكَلِ

بُوذَا

فهرَعُوا ، شَاهِرين سُيُوفَهم ، صَارِخِين :

مَن هُو هَذا المَجْنُون

الذي لا يَكْتَرِثُ بِالمَوْتِ؟

فَأَجَاب صَوْتٌ لَطِيفٌ عَذْبٌ :

إنّي شيرَامَاتي ، خَادِمَةُ بُوذَا .

وبَعْدَ لَحْظَةٍ كَان دَمُهَا يَصْبُغُ

الرُّخامَ البَارِدَ باللَّوْن الأَحْمَر

وفي سَاعِةَ النُّجُوم الهَادِئَةِ

كان نُورُ آخرِ المَصَابِيحِ المُنْذُورَةِ

يَنْطَفِيءُ عِنْدَ أَقْدَامِ الهَيْكَلِ

(44)

إنَّ النَّهارَ الذِي يَفْصِلُ

بَيْنِي وبَيْنَكِ

يَنْحَنِي انحناءَة وَدَاعِهِ الأَخِيرَة

واللَّيل يُسْدلُ حِجَابَه عَلَى وَجْهِهِ
ويُخْفِي المِصْبَاحَ الوَحِيدَ المُوقَدَ
في غُرْفَتِي
وتَأْتِي وصيفَتُكِ السَّمْرَاء
في هُدوءٍ
لِتَفْرِشَ بِسَاط العُرْسِ
لِتَتَّخِذي مَكَانَك فَوْقَه
وَحْدَك مَعِي
في الصَّمْت الخَالِي من الكَلاَمِ
حَتَّى انقِضَاءِ اللَّيْلِ

(45)

إِن لَيْلِي قد انقَضَى عَلَى فِرَاشِ المَوْتِ
وَعَيْنَيَّ مُتْعَبَتَانِ
وقَلْبِي المُتْعَب

لَمَ يَسْتَعِدَّ بَعْدُ لِلقَاءِ الصَّبَاحِ
بِأَفْرَاحِهِ المُحْتَشِدَةِ
فَلْتَسْحَبْ رِدَاءً فَوْقَ نُورِكَ العارِي
وأَقْصِ عَنِّي هَذَا البَرِيقَ المُبْهِرَ
ورَقْصَةَ الحَيَاة
وَدعْ وِشَاحَكَ المنسوج من تِلك الظُّلْمَةِ النَّاعِمَةِ
يُسَرْبِلْني في ثَنَايَاه
ويُغَطِّي أَوْجَاعِي
لَحْظَةَ تَحْجبني مِن عَنَاء الكَوْنِ

(46)

لَقَد مَضَى الزَّمَنُ الذي كَان في وُسْعِي
أَن أَرُدّ إِليها الفَضْلَ
عن كُلّ ما أتلَقَّاه مِنها
فَلَيْلُها لَقِيَ فَجْرَهُ
وأنت حَمَلْتَها إليّ بَيْنَ ذِرَاعَيكَ

فَسأَحْمِلُ إِلَيْكَ أَنْتَ
شُكْرِي وهِبَاتِي التي كُنْتُ
سأَخُصُّهَا بِهَا
إني ألتَمِسُ مَغْفِرَتَكَ
لِكُلّ الجِرَاح والإهَانَات التي أَرتكَبْتُها
إِنّي أُقَدِّم إِلَيْكَ زَهَرات حُبِّي
التي ظَلَّت مُبَرْعَمَةً
حِينَ كَانَت تَنْتَظِرُ تَفَتُّحَهَا

(47)

لَقَد وَجَدْتُ بَعْضَ رَسَائِلِي القَدِيمَةِ
مُخَبَّأَةً بِعنَايةٍ دَقِيقَةٍ
في صُنْدُوقِها الصَّغِيرِ
تِلْك حَفْنَةٌ صَغِيرَةٌ مِن اللُّعَبِ
التي كَانَتَ تَلْهُو بِها ذَاكِرَتُها

وبِقَلْبٍ خَجُولٍ كَانَت تَسْعَى
لِكَي تَسْرِقَ هَذه الأَشْيَاءَ الصَّغِيرة
مِن سَيْلِ الزَّمَنِ الجَارِفِ
وتَهْتِف بِهِ
إنَّهَا لِي وَحْدِي
آه ، لَم يَعُدْ هُناك أَحَدٌ يُطَالِبُ بِها
ويَدْفَعُ ثَمَنَها بِعِنَايَةٍ حنون
ومع ذَلِك فَمَا تَزال في مَكَانِها .
يَقِيناً أَنَّه مَا يَزَالُ هُنَاك حُبٌّ
في هَذا الكَوْن يُنْقِذُها مِن التَّلَف التَّامِ
تَماماً مِثْلَ حُبِّها
الذي أَنْقَذ هَذِه الرَّسَائِل بِعشْقٍ حَنُون

(48)

أَيَّتُها المَرْأَة

اِجلبي الجَمَال والنِّظَامَ لِحَياتِي

كَمَا كُنْتِ تجلبينهما إِلَيها وأَنْتِ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ

اكنِسِي شَظَايَا السَّاعَاتِ الغَبْرَاء

وَامْلَئِي الجِرَارَ الفَارِغَة

واصْلِحِي كُلَّ مَا تَعَرَّض لِلإِهْمَالِ

ثُمَّ افْتَحِي البَابَ الدَّاخِلِي للمَعْبَدِ

وأَوْقِدِي الشُّمُوعَ

ولِنلْتَقِ هُنَاك في الصَّمْت

أَمَامَ خَالِقنَا

(49)

يَا إِلهي

لقد كان الأَلَمُ كَبِيراً

حِين تَمَّ ضَبْطُ الأَوْتَارِ

فَلْتَبْدأ مُوسِيقَاكَ

دَعْني أَنْسَى الأَلَمَ

اجْعَلْني أَشْعُر فِي الجَمَالِ

بِما كَان يَدُورُ بِخَاطِرِكِ في تِلك الأَيَّام القَاسِيَةِ

قَبل أَن يَتلاَشى اللَّيْلُ

يَتَباطَأُ قَلِيلاً عِنْد بَابِي

ويَسْتَأْذِنُ في الرَّحِيلِ وهو يُغَنِّي

يا إِلَهي

اسْكُبْ قَلْبَكَ في أَوْتَارِ حَيَاتِي

أُغْنِيَاتٍ تَتَنَزَّلُ من نُجُومِكَ

في لَحْظَةٍ خَاطِفَةٍ

رَأيتُ عَظَمَةَ خَلْقِكَ

تَتجَلَّى فِي حَيَاتِي

هَذا الخَلْقُ الذِي تَتَابَعَ

أَحْقَاباً وأَحْقَاباً

عَبْرَ كَثِيرِ من الأَمْوَاتِ

لَقد بَكَيْتُ مِن قِلَّةِ جَدَارَتِي

حِين أَرَى حَيَاتِي فِي قَبْضَةِ

سَاعَاتٍ تَافِهةٍ، لاَ مَعْنَى لَهَا

ولَكِنَّنِي حِين أراهَا بَيْنَ يَدَيْكَ

أَعْلَمُ أَنَّها أَغْلى جِدّاً

من أن تُبَدَّدَ بَيْن الظِّلاَلِ

51

إِنِّي لأَعْلَمُ

بِأَنَّ في النِّهَايَةِ الحَالِكَة لأحَدِ الأَيَّامِ

سَتُودِّعُني الشَمْسُ وَدَاعَهَا الأَخيرَ

وتَحْتَ ظِلاَلِ أَشْجَار التِّينِ

سَيَعْزِفُ الرُّعَاةُ نَايِاتِهِم

وقُطْعُانُهم تَرْعَى

في مُنْحَدَرَاتِ ضِفَّةِ النَّهْرِ

بَيْنَمَا تَدْخُلُ أَيَّامِي في الظَّلاَمِ

هَذِهِ هِيَ صَلاَتِي وهَذَا دُعَائِي

أن أَتَمَكَّن قَبْل رَحِيلِي

من العِلم بالسَّبَبِ الذِي دَعَتْنِي بِهِ

الأَرْضُ إِلى ذِرَاعَيْها

ولِمَاذَا صَمْتُ لَيَالِيَها يُحَدِّثُنِي عَنِ النُّجُومِ

ونُورُ نَهَارِها يُقَبِّل أَفْكَارِي

فَيُحَوِّلُها إِلى زُهُورِ

أَن أَتَمَهَّل قَبْل رَحِيلِي قَلِيلاً

عِند آخَرِ فَقَرَاتِ أَنْغَامِي

مُتَمِّماً بِذَلِك اللَّحْنَ

وأنْ أَتمكَّن من إيقادِ المِصْبَاحِ.

حَتَّى أَرى مُحَيَّاكَ

وأضفِر الإِكْلِيلَ الذي أَتُوِّجُكَ بِهِ

(52)

مَا هِيَ المُوسيقى التي تُهَدْهِدُ الكَوْنَ بإيقَاعِها؟

إِنَّنا لنَضْحَكُ حِينَ يَدُقُّ هَذا الإِيقَاعُ فَوْقَ قِمَّةِ الحَيَاةِ

ونَصِيرُ صِغَاراً

عِنْدَما يَعُود هَذا الإِيقاعُ للتَّردُّدِ في الظُّلْمَةِ

ولَكِنَّ اللُّعْبَةَ وَاحِدَةٌ

قَادِمٌ وَراحِلٌ

عَلى إِيقَاعِ المُوسِيقَى اللاَّمُتَنَاهِيَة

إِنَّك تُخْفِي كَنْزَكَ

في رَاحَةِ كَفِّكَ

ونَحْنُ نُصْرُخُ أَنَّه قَد سُرِقَ

ولَكِن افْتَح يَدَكْ أَو اقْبِضْهَا كَما يَحْلُو لَكَ

فإن الرِّبحَ والخَسَارَة شَيءٌ وَاحِدٌ

واللُّعْبَةُ التي تُمَارِسُها مَعَ نَفْسِكَ

تَرْبَحُ فِيهَا وتَخْسَرُ في الوَقْتِ نفسه

لَقد قَبَّلتُ هَذا الكَوْنَ

بِعَيْنَيَّ وبِأَعْضَائِي

وَطَوَيْتُه في قَلْبي

طَيَّاتٍ لاَ حَدَّ لَهَا

وغَمَرْتُ بِأفْكَارِي

أَيَّامَه ولَيَالِيهِ

حتَّى صَارَ الكَوْنُ وَحَياتِي

شَيْئاً وَاحِداً.

إِنَّنِي أُحِبُّ حَيَاتِي

لأَنِّي أُحِبُّ نوْرَ السَّمَاءِ

المُتَغَلْغِل في نَفْسِي

فَإِذَا كَان تَرْكُ هَذا العَالِمَ حَقِيقَةً

مِثْلَ حَقِيقَةِ حُبُّه،فَلاَ بُدَّ

أن يَكُون مَعْنىً لِلِقَاءِ الحَيَاةِ وفِرَاقِهَا

وإذَا كَان هَذا الحُبّ سَيَخْدَعُهُ المَوْتُ

فَإِن سَرطَانَ هَذا الخِدَاعِ سَوْف

يَقْرِضُ كُلّ شَيء

والنُّجُومُ تَخْبُو وتَصِيرُ سَوْدَاءَ

أحِسّ أن جَمِيعَ النُّجومِ تَتَألّق في كِيَانِي

وأَن الكَوْنَ كُلّه يَتدَفّق في حَيَاتِي

كَأَنّه البَحْرُ الدّافِقُ

وأَن الزُّهُورَ تَتَفَتّحُ في جَسَدِي

وشَبَابُ الأَرْضِ والمَاءِ يَتَصَاعَدُ في قَلبِي

كَما يَتَصَاعَدُ بَخُورُ المَجَامِرِ

ونَفَسُ الأَشْيَاءِ كُلِّها

يَعْزِفُ أَنْغَامَه كَالنَّايِ

فَوْق أَفْكَارى

55

كان تُولْسِيدَاسُ الشَّاعر

يَجُوبُ ضِفَّة نَهْرِ الكِنْجِ

غَارِقاً في أَفْكَارِهِ العَمِيقَةِ

حَتَّى بَلَغَ ذَلِك المَكَان المُنْعَزِلَ

حَيْثُ يُحْرَق المَوْتَى

فَوَجَد امرَأَةً جَالِسَةً عِند قَدَمِي

جُثْمَانِ زَوْجِهَا

وقَد لُفَّ في أَرْدِيَةٍ زَاهِيَةٍ

كَمَالَو كَان عَرِيساً لَيْلَةَ زَفَافِهِ

وحِين رَأَت المَرْأَةُ الشَّاعِرَ

نَهَضَت وانْحَنَت أَمَامَه

قَائِلَةً :

لِتُنْعِمْ عَلَيَّ أيُها المُعَلِّمِ بِنِعْمَةِ اللَّحَاقِ بِزَوْجِي

فِي السَّمْاءِ!

فَقَال تُولسيدَاس:

وِلماذَا كُلُّ هَذِه العَجَلَة يا بُنَيَّتِي

أَلَيْسَت هَذهِ الأرضُ أَيْضاً مُلْكاً

لِذَلِك الذِي خَلَق السَّمَاءَ؟

قَالتَ المَرْأَةُ:

لَيْست رَغْبَتي في السَّمَاءِ ولَكِنَّني

أُرِيدُ زَوْجِي

فَابتَسَم تُولِسيدَاس وقَال:

عُودي إلى بَيْتِك، يا طِفْلَتِي

وقَبْل أن يَنْقَضِيَ الشَّهْرُ ستُلاَقِينَ

زَوْجَكَ.

وعَادَت المَرْأَةُ إِلى البَيْتِ وَهِيَ

تُشِعُّ أَمَلاً. وكان تُولسيداس

يَذْهَبُ إِليها كُلَّ يَوْمٍ ويُلَقِّنُهَا أَفْكَاراً

سَامِيَةً تَعْكُفَ على التَّأمُّل فِيها

حَتَّى أَفْعَم قَلْبَها الحُبُّ الإلَهي

وحين أَوْشَك الشَّهر على النِّهَايةِ

جَاءَها الجِيرَانُ مُسْتَفْسِرينَ :

أَيَّتُها المَرْأَةُ هَل وَجَدْتِ زَوْجَكِ

فابتَسَمُت الأَرْمَلَةُ وقَالَت :

أَجَلَ وَجَدْتُهُ

فَازدَادَ فُضُولُهم وأَلَحُّوافِي السُّؤَالِ :

أَيْن ؟

- في قَلْبي

إِنَّه مَوْلاَي الذي إِتَّحَدَ بِي

إِلى الأَبَدِ

56

لقد جِئْتِ لِتَمْكُثِي لَحْظَةً إِلى جَانِبِي

وَلَمَسْتني بِسرِّ المَرْأَةِ الكَبِيرِ

الكَامِن فِي قَلْب الخَلْق

هِيَ التي تُعِيدُ دَوْماً إلى اللَّه

تِلك العُذُوبَةَ التي تَتَدَفَّقُ مِنْها

هي التِي صِيغَت من الجَمَالِ الخَالِدِ

والشَّبَابِ الدَّائِمِ

إنّها تَرْقُصُ في الجَدَاوِلِ الرَّقْرَاقَةِ

وتُغَنِّي في ضَوْءِ الصَّبَاحِ

وَهِيَ التي تُرْضِعُ الأَرْضَ العَطْشَى

بِأَمْوَاجِهَا المُزْبِدَةِ

وَفِيهَا يَنْقسِمُ العُنْصُرُ الخَالِدُ إلى قِسْمَيْن

في فَرْحَةٍ لاَ يُمْكِن احتِوَاؤُها أَبَداً

وتفيضُ في أَلَمِ الحُبّ

تُرَى مَنْ يَسْكُنُ فِي قَلْبِي؟

أَهِيَ تِلكَ المَرْأَةُ التي نَسِيتُها إلى الأَبَدِ؟

لَقَد غَازَلْتُها

وَلكِنَّني لَمْ أَسْتَطِعِ نَوالَها

لَقَد زَيَّنْتُها بِالأَكالِيلِ

وتَغَنَّيْتُ بِمَدْحِهَا

فَتَأَلَّقَتِ ابتِسَامَةٌ عَلَى وَجْهِهَا ثُمَّ تلاَشَت

وَصَرَخَت المَرْأَةُ المَلِيئَةُ بِالحُزْنِ

«لاَ أَجِدُ أَيَّ مُتْعَةٍ فِيكِ»

وَاشْتَرَيْتُ لَهَا أَسَاوِرَ مُرَصَّعَةً بِالجَواهِرِ

ومَرْوَحْتُ عَلَيها بِمِرْوَحَةٍ مُرَصَّعَةٍ باللآلِيء

وسَوَّيْتُ لَهَا سَرِيراً ذَهَبِياً

فَارْتَجَفَ في عَيْنَيْها شُعَاعٌ مِن البَهْجَةِ

ثُمَّ انْطَفَأَ

وصَرَخَت المَرْأَةُ المَلِيئةُ بِالحُزْنِ

«لاَ أَجدُ مُتْعَةً في كُلِّ هَذِهِ الأَشْياء،

وَوَضَعْتُها فَوْقَ عَرَبَةِ النَّصرْ

وجُبْت بِهَا أَطْرَافَ الكَوْن

وكانت القُلُوبُ الوَالِهَةُ تَنْحَنِي عَلَى قَدَمَيْهَا

والهُتَافَات بِها تَرْتَفِعُ إِلى السَّمَاءِ

فَيَتَأَلَّقُ الفَخْرُ فِي عَيْنَيْها حِينًا

ثُمَّ تُغَيِّمُهُ الدُّمُوعُ

وتَصْرُخُ المَرْأَةُ المَلِيئَةُ بِالحُزْنِ

«لاَ أَجِدَ أَيَّ مُتْعَةٍ فِي الظَّفَرِ»

فَسَأَلْتُهَا

قُولِي، عَمَّ تَبْحَثِين؟

فَقَالت:

إِنِّي أَنتَظِرِ ذَلك الذي لاَ يُعْرَفُ اسْمُهُ

وكَانَت الأَيَّامُ تَمْضِي ، وَهِيَ تَصْرُخُ :
فَمَتَى يَأْتِي حَبِيبِي الذِي لاَ أَعرِفُهُ
ويُصْبِحُ مَعْرُوفاً عِندي إِلى الأَبَدِ؟

58

لَكَ ذَلِك النُّور الذي يَتَفَجَّر من الظَّلاَمِ
ولَك ذَلِك الخَيْر الذِي يَبْزُغُ من القَلْبِ الذِي
شَقَّهُ الصِّرَاعُ
وَلَك البَيْتُ الذِي يَنْفَتِحُ عَلَى العَالَمِ
والحُبُّ الذِي يَدْعُو إِلى مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ
ولَكَ العَطَاءُ الرَّابِحُ حِين تَبْدُو الأَشْيَاءُ
كُلُّها خَاسِرَةً
ولَكَ الحَيَاةُ التي تَنْدَفِقُ من كُهوفِ المَوْتِ
ولَك السَّمَاءُ التِي تَرْقُدُ في التّرابِ
أنت هُنَاكَ مِن أَجْلِي

59

حِين يُحَاصِرُني إعْيَاءُ الطَّرِيقِ
وظَمأُ اليَوْمِ الخَانِقِ
وحين تُلْقِي سَاعَاتُ الغُروبِ
طُيُوفَ ظِلاَلِها فَوْق حَياتِي
فَإِنّي لاَ ألتَمِسُ صَوْتَكَ أَيُّها الصَّدِيقِ
ولَكِنّي أَتَطَلَّعُ إلى لَمْسَتِكَ أَيْضاً
هُنَاكَ لَوْعَةً في قَلْبِي
الذِي يَنُوءُ بِثِقْلِ غِنَاه الذِي لَمْ يَمْنَحْهُ
لَكَ .
مُدَّ يَدَكَ عَبْرَ الظَّلاَمِ
حَتَّى أُمْسِكَ بِهَا وأَمْلأَها وأَشُدَّ عَلَيْها
دَعْنِي أَشْعُرْ بِلَمْسَتِها

60

العِطْرُ يَهْتِفُ في قَلْبِ البُرْعُمِ

أوَّاه . . لَقَد تَوَلّي النَّهارُ

وتَوَلّى اليَوْمُ الرَّبيعِيُّ السَّعِيدُ

وصِرْتُ أَسِيراً لأَفْوَافِي :

أيّها المَخْلُوقُ الصَّغِيرُ

لاَ تَفْقدْ شَجَاعَتَكَ

إن سِجْنَك سَيَتَحَطّمُ

والبُرعُم سَيَتَفَتّحُ فِي زَهْرَةِ

وحِينَ تَمُوتُ في عُنْفُوانِ الحَيَاةِ

فَإن الرَّبيعَ سَيُواصِلُ حيَاتَه .

وتَحَرَّكَ العِطْرُ قَلِقاً دَاخِل البُرْعُمِ

وصَرَخ :

أَوّاه . . إِن السَّاعَاتِ تَمْضِي
ولا أَدْرِي أَينْ أَذْهَبُ
ولا عمَّ أَبْحَثُ؟
أيّها المَخْلُوق الوَدِيعُ
لا تَفْقِد شَجَاعَتَكَ
إِن النَّسِيمَ الرَّبِيعيَّ
أَثْناءَ عُبورِهِ
قد أَصْغَى إِلى رَغْبَتِكَ
وقَبْلَ أَن يَنْتَهِي اليَوْم
فَسْوَف تُحَقِّقُ وُجُودَكَ
وبَدَا المُسْتَقْبَل غَامِضاً
فَصَرَخ العِطْرُ يَائِساً :
أَوّاه . . مَن المَسْؤُولُ عَن حَيَاتِي
هَذِهِ الخَالِيَةِ مِن كُلَّ مَعْنَى؟
ومَن يَقْدِرُ أَن يُفَسِّرلِي وُجُودِي؟

لاَ تَفْقِد شَجَاعَتَك أَيُّها المَخْلُوقُ الرَّهِيفُ
إِنَّه لَقَرِيبٌ ذَلِك الفَجْرُ الكَامِلُ
الذي تَمْزِجُ فِيه حَيَاتَكَ
بِكُل الحَيَاةِ
وتَعْرِفُ في النِّهَايَةِ
غَايَتَكَ من الوُجُودِ

61

يَا رَبَّاه
إنَّها مَا تَزَالُ طِفْلَةً
تَرْكُضُ لاَهِيَةً لاَعِبَةً
في رِحَاب قَصْرِكَ
وتُحَاوِلُ أيضاً أَن تَجْعَلَ مِنْكَ
دُمْيَةً تَلْهُو بها
إِنَّها لاَ تَهْتَمّ إذا تَبَدَّدَت غدائِرُها

أُو جُرَّ ثَوْبُها فَوْقَ التّرابِ

وتَنَامُ حِينَ تَتَحَدَّثُ إِليها

ولا تُجِيبُ

والزَّهْرُ الذِي تُقَدِّمُه إِليها في الصَّبَاح

يَسْقُطُ من يَدَيْها فَوْق التُّرابِ

وحِين تَنْفَجِرُ العَاصِفَةُ

وتُغَطِّي الظُّلْمَةُ كُلَّ أَرْجَاءِ السَّمَاءِ

لاَ تَقْدِرُ على النَّوْمِ

دمياتها مُتَنَاثِرَةٌ فَوْقَ الأَرْضِ

وهي تَتَشَبَّثُ بِأَحْضَانِكَ

مَذْعُورَةً

تَخْشَى أَلا تُحْسِن خِدْمَتَكَ

ولَكِنَّكَ تُلاَحِظ لعبها باسِماً

إِنَّك تَعْرِفُها

فَتِلْك الطِّفْلَةُ الجَالِسَةُ فَوْقَ التّراب

هِي خَطِيئتُكَ

ولَعِبُها سَوْفَ يَهْدأ ويَسْكُنُ

وَيتَعَمَّقُ في الحُبّ . .

62

أيّتُها الشَّمْسُ

مَن سَوَّى السَّمَاءَ

يَسْتَطِيعُ أَن يَسَعَ صُورَتَكِ

إِنّي أَحْلُم بِكِ

ولَكِني لاَ أَطْمَعُ فِي خِدْمَتِكِ

بَكَت قَطْرَةُ النَّدى وقَالت :

إِنّي أَصْغَرُ مِن أَن أَحْتَوِيكِ

أَيّها الإِلَه العَظِيم

وحَيَاتِي كُلُّها دُمُوعٌ

قَالت الشَمْسُ :

إنّي أُنِير سَمَاءً لاَ حَدَّ لَها
ولَكِن يُمْكِنُنِي أَيْضاً أَنْ أَمْنَحَ
نَفْسِي لِقَطْرَة النَّدَى الصَّغِيرَةِ
سَأُصْبِحُ شَرَارَةً من النُّورِ
وأَغْمُرُكِ بِضَيائِي
وستُصْبِحُ حَياتُكِ
فَلَكاً ضَاحِكاً

(63)

لَيْس لِي
ذَلك الحُبُّ الذي لاَ يَعْرِفُ حُدُوداً
إنَّه كالنَبِيذِ المُتَخَمِّرِ
ما يَكَادُ يَنْشَقُّ عَنْه الدَنُّ
حَتَّى يَتَبَدَّدَ في لَحْظَةٍ
هَبْ لِي ذَلِك الحُبَّ الغَضَّ

الصَّافِيَ صفَاءَ مَطَرِكَ
الذي يَنْزِلُ عَلَى الأَرْضِ
الظَّامِئَةِ كَمَا تَنْزِلُ البَرَكَة
ويَمْلأُ جِرَارَ البَيْتِ الفَخَارِيَّة .
هَبْ لِي الحُبَّ الذي يَنْفَذُ
إلى مَرْكَزِ الوُجُودِ
ومِن هُنَاك يَتَوَزَّعُ ويَنْتَشِرُ
مِثْلَ النَسْغِ الخَفِيّ
الذي يَسْرِي في كُلّ أَغْصَانِ الحَيَاةِ
مُفَتِّقاً أَثْمَاراً وأَزْهَاراً
هَبْ لِي الحُبَّ الذِي يَهْدِي القَلْبَ

64

بِفُيوضِ الأَمْنِ .
كانَت الشَمْسُ قَد غَابَت

خَلْفَ الضِفَّة الغَرْبيَّة للنَّهْرِ

بَيْن تَشَابُكِ أشْجَارِ الغَاب .

وفِتْيَانُ النَّاسِك (غاوتاما)

قَد سَاقُوْا القُطْعَانَ إلى الحظائِر

وتَحَلَّقَوا حَوْل النَّارِ يُنْصِتُون لِمُعَلِّمِهم النَّاسِك .

حِين أَقْبَلَ عَلَيْهم فَتىً غَرِيبٌ

يَحْمِلُ هَدِيةً مِن الزُّهُورِ والفَاكِهَةِ

وَانْحَنى أَمَامَ قَدَمَيْهِ

مُتَحَدِّثاً بِصَوْتِ رَقِيقٍ كَأَنَّه تَغْرِيدُ العُصْفُورِ:

يا مَوْلاَي ، لَقد جِئْتُ إِلَيْكَ

لِيَتِمَّ قَبُولي في طِرِيق الحَقِيقَةِ

السَّامِيةِ

إن اسْمِي (ساتَيا كَامَا)

قال المُعَلِّم :

لِتَحُلَّ البَرَكَةُ فَوْقَ رَأْسِكَ

وَلَكِن إلى أيّ فِئَةٍ تَنْتَمِي يا طِفْلِي الصَّغِير؟
إن البَرْهَمِيَّ وَحْدَه هُو الذي يُمْكِنُه أن يَتطَلَّعَ
إِلى الحِكْمَةِ الأَسْمَى
فَأجَاب الفَتَى :
أيُّها المُعَلِّم . . إني لاَ أَعْرِفُ لأِ يَّة فِئَةٍ
أَنْتَمِي ولَكِنّي سَأَذْهَب لأسْتَفْسِرَ
من أمِّي ، عَن ذَلِك
وَاستَأْذَن الفَتَى (ساتَاكَيامَا)
وخَاضَ الجَدْوَلِ
عَائِداً إِلى كُوخِ وَالدِيهِ
بأقْصَى الصَّحْرَاء
الوَاقِعة في ضَواحِي القَرْيَةِ النَّائِمَة
وكانَ المِصْبَاحُ يُضِيءُ الغُرْفَةَ الفَقِيرَةَ
إضَاءةً وَاهِنَةً شَاحِبَةً
وكَانتَ الأم جَالِسَةً في الظَّلاَمِ

عِنْدَ البَابِ ، تَنْتَظِر عَوْدَةَ طِفْلِها

وَضَمَّتْهُ إلى صَدْرِهَا

وقَبَّلَت شَعْرَه بِرِقَّة ولُطْفٍ

وسَأَلَتْهُ عن زِيَارتِهِ إلى المُعَلِّم

فَسَألها الصَبّي :

أَيّتها الأُمّ المَعْبُودَةُ، مَا هَو اسِم وَالِدي؟

فَإِن البَرْهَمِيّ وَحْدَه هُو الذي يُمْكِنُه

أَنَ يَتَطَلَّع لِبلُوغِ الحِكْمَةِ الأَسْمَى

هَكَذا قَال لِي المُعَلّمَ غَاوْتَامَا

فَخَفَّضَت الأُم بَصَرَها

وقَالَت في همْسٍ :

في شَبَابِي كُنْتِ فَقِيرَةً

وكَان لِي عِدَّةُ أَسْيَادِ

وقد جئت بين ذراعي أمك (جابالا)

يا حبيبي ، أمُّكَ التي لَم يكن لَها زَوْجٌ .

وكانت أشِعَّة الشَمْس الأُوَلى
تَتَأَلَّقُ فَوْقَ أَطْرَافِ الأَشْجَارِ
المُحِيطَةِ بِصَوْمَعَةِ النَّاسِكِ في الغَابَةِ
والطَلَبةُ ، بِشُعُورِهِم المُشَعَّثَةَ
المَطْلُولَة بِرُطُوبَةِ حَمَّامِ الصَّباحِ
يَجْلِسُون تَحْتَ الشَّجَرَةِ العَرِيقَةِ
أَمَام المُعَلِّم .
وهُنَاك أَقْبَل (ساتاكاما)
وَانْحَنى عِند قَدَمِي الحَكِيم
وَظَلَّ سَاكِتاً
فَسأَله المُعَلِّم . . قُل لي
لأي فِئةٍ تَنْتَمِي؟
فَأَجَاب لاَ أَدْرِي . . ولَكِنِّي حِين
سَأَلتُ أُمِّي ، قَالَت :
إِنَّني عَمِلْت في خِدْمَةِ أَسْيَاد كَثِيرين في شَبابي وأَنْتَ وُلِدْت

بَيْن ذَراعَي أُمِّك (جَبَالا) التي لَمَ يكُن

لَها زَوْجٌ

وهُنَاك تَعَالتَ جَلَبَةٌ

تُشْبِهُ طَنِينَ النَّحْلِ الحَانِقِ

من المُضَايَقَةِ في مَنْحَلِه

وتَهامَسَ الطَّلَبَةُ حَوْل هَذِه

الوَقَاحة المُخْزِية مِن هَذا

الفَتَى المَنْبوذِ.

فَنَهَض المُعَلِّم (غواتاما)

وفَتَح ذِرَاعَيْه وضَمَّ إلى صَدْرِهِ

الفَتَى قَائِلاً: إنَّك أَفْضَلُ

مِن جَمِيع البَرْهَمِيِّين يَا طِفْلِي

لَقَد وَرِثْتَ أَنْبَل إرْثٍ.

إنَّه الحَقِيقَة..

65

لَعَلَّهُ يُوجَدَ بَيْتٌ وَاحِدٌ في هَذِه المَدِينَةِ

يَظَلّ بَابُهُ مَفْتُوحاً إلى الأَبَدِ

ليستَقْبِلَ هَذَا الصَّبَاحَ لَمْسَةَ الفَجْر

حَيْثُ يَبْلُغ النُّورُ أَهْدَافَه

إن الزُّهُورَ قَد تَفَتَّحَت

في السُّهولِ والحَدائِقِ

ولعلّ هُنَاكَ قَلْباً

قَدَ وَجَد هَذَا الصَّبَاحَ

الهِبَةَ السَّاعِيَةَ نَحْوَه

مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ

66

لِتُصغِ أَيُّها القَلْب

فَفي نَايِهِ عَبِيرُ الزُّهُورِ الوَحْشِيَّةِ
والأَوْرَاقِ النَّضِيرةِ
والمِيَاهِ المُتَأَلِّقَةِ
والظِّلالِ التي يَتَرَدَّدُ فِيها رَفِيفُ أَجْنِحَةُ النَّحْلِ
والنَّايُ
يَسْرِقُ الابتِسَامَةَ من شَفَتَيْ صَدِيقَتِي
ويَنْشُرُها فَوْق حَيَاتِي

69

لَقَد كُنْتَ في صَمِيم القَلْبِ
ولِهَذَا لَم يَسْتَطِعْ أَن يَعْثُرَ عَلَيْكَ
قَلْبِي حِين كَان يَجُوبُ الآفاق
لَقَد اخْتَفَيْتَ عَن حُبِّي وأَمَالِي
حَتَّى النِهَّايَة
لأَنَّك كُنْتَ مَوْجُوداً فِيهَا

لَقَد كُنْت أَعْمَقَ بَهْجَةٍ في لُعْبَةِ

شَبَابِي

وحِينَ كُنْتُ مَشْغُولاً باللُّعْبَةِ

كانَت البَهْجَةُ قَد تَوارَت.

لَقَد كُنْتَ تُغَنِّي فِي كُلِّ نَشْوَةٍ

مِن حَيَاتِي

أَمَّا أَنَا فَقَد نَسِيتُ أَن أُغَنِّي مِن أَجْلِكَ

(70)

حِين تَرْفَعُ مِصْبَاحَك السَّمَاءُ

يُلْقِي المِصْبَاحُ نُوراً عَلى وَجْهِي

وَتَقع ظِلالُهُ عَلَيْك

وحِينَ أُمْسِكُ مِصْبَاح الحُبّ

فِي قَلْبِي

فَإِن نُورَهُ يُضِيئُكَ

وأَظَلُّ أَنَا خَلْفَكَ فِي الظِّلّ

(72)

لَقَد هَرَعَت البَهْجَةُ

مِن كُلّ أَرْجَاءِ العَالمِ

لِتُسَوِّي كِيَانِيَ الجَسَدِيَّ

لَقَد قَبَّلَتْهَا أَضْوَاءُ السَّمَاءِ

حتَّى استَيْقَظَت

وفي أَنْفَاسِهَا كانَت تَهْمِسُ

زُهُورُ الأَصْيَافِ القصِيرَةِ

وصَوتُ الرِّياحِ

وَزَقْزَقَة المَاءِ

كَانت تُغَنِّي في حَرَكَاتِهَا ،

وَهَوَى مَوْجَة أَلْوَانِ

الغُيُومِ والغَابات يجْرِي في حياتها

ومُوسيقَى الكَوْنِ كُلِّهِ

كَانَت تُدَاعِبُ أطَرافَها
وَاهِبَةً لَها شَكْلَها الجَمِيل .
إنَّها هِي عَرُوسي
لَقد أَوْقَدَت أَنَوارَها فِي بَيْتِي

73

تَسَرَّبَ الرَّبِيعُ في كِيَانِي
بِأَوْراقِهِ وَزُهُورِهِ
والنَّحْلُ يَطِنُّ حَوْلَها طوَال الصَّبَاحِ
والرِّياحُ تَتَلاعَبُ في خُمُولٍ مَع الظِّلاَلِ
وتَدَفَّقَ نَبْعٌ عَذْبٌ مِن أَغْوارِ قَلْبِي
وتَنَدَّتْ عَيْنَاي مِن البَهْجَةِ
مِثلَ الصَّباحِ الطَّرِيِّ بِالنَّدَى
والحَيَاةُ تَرْتَجِفُ في عُرُوقِي
مِثْل أَوْتَار العُودِ الرَّنَّانَةِ

أَلا تَجُوبِين وَحِيدَةً شَوَاطِئَ حَيَاتِي
حَيْثُ يَعْلُو المَدُّ
يَا عَاشِقَةَ أَيَّامي اللاَّمَحْدُودَةِ
إن أحْلاَمي تُحَلِّقُ حَوْلَكِ
كَأنها طُيُورُ ذَاتُ أَجْنِحَةٌ مُلَوَّنَةٍ
أهيَ أُغْنياتك تلك التِّي يتردَّدُ رجْعُ صداهَا
في الأَغْوَارِ المُظْلِمَة مِن كِيَانِي؟
مَن غَيْرُكِ
يَسْتَطِيعُ أَن يُصغِيَ إلى طَنِين
السَّاعات الحَاشِدَة التي تَرِنُّ
اليَوْمَ في عُرُوقِي
والخُطُواتُ الفَرِحَة
التي تَرْقُصُ في قَلْبِي
وضَجِيجُ الحَيَاةِ السَّائِرَةِ
التي تَخْفُق بأَجْنِحَتِها في قَلبِي

(75)

أَمْسِ فَقَط قَدِمْتُ إلى أَرْضِكَ
عُرْيَانَ ، بِلا اسْمٍ
وبِصَيْحَةٍ وَاهِنَةٍ
أمّا اليَوم
فَصَوْتِي جَذْلاَنُ
فِيما تَنْعَزِل أنت يَا مَوْلاَي
جَانِباً لِتُفْسِحَ لِي مَكَاناً
حَتَّى أَسْتَطِيعَ أَن أَمْلأَ حيَاتِي
وحِين أَحْمِلُ إلَيْك أغانِيَّ قُرْبَاناً
فَإنّي أَتَمَنَّى في أَعْمَاقِي
أَنْ يَأْتِيَ النَّاسُ ويُحِبُونِي مِن أَجْلِهَا
إنّه لَيَرُوقُ لَكَ أن يُكْتَشَفَ أنني أُحِبّ
هَذا العَالَم الذِي خَلَقْتَنِي فِيهِ

(76)

أَسْكُن فِي حَيَاء

إلى ظِلٍّ الخَلاَص

ولَكِن الآن وَمَوْجَةُ الفَرْحَةِ

تَرْفَعُ قَلْبِي فَوْقَ ذرْوتِها

فَإِنَّه يَتعَلَّق ويَتَشَبَّثُ بِصَخْرَةِ

لَوْعَتِه القَاسِيَة

وَحِيدَةً، أَجْلِس فَي زَاوِيَة مِن بَيْتِي

مُفَكِّرَةً أَنَّها رُبَّما كَانت أَضْيَق مِن أَن تَتَّسِعَ لأيّ ضَيْفٍ

ولَكِن الآنَ وقَد فَتَحتَ البَابَ

فَرْحَةٌ مُبَاغِتَةٌ

فَإِنِي أُدْرِكُ أن هُنَاكَ مَكَاناً لَكَ

ولِكُلّ العَالَمِ

إِنّي أَمْشِي على أطراف قدميّ

مُنْتَبِهة إلى نَفْسِي
ولَكِن دَوَّامَةً من الفَرْحَةِ
أَلقْتَ بي فَوْقَ التُّرابِ
فَإني أَضْحَكُ
وأَتَدَحْرَجُ وأَتَقَلَّبُ فَوْقَ الأَرْضِ
تَحت قدميكَ
كَما يَتَقَلَّبُ الطِّفْلُ

77

إِن الكَوْنَ لَكَ
فَوْراً وَدَوْماً
ولَمَّا لَم تَكُن لَك شَهَوَاتٌ
يا مَلِيكي
فَإِنَّك لاَ تَسْتَمْتِع بِثَرْوَتِكَ
حَتَّى لَكَأَنَّها لَم تُوجَد

ولِهَذا مَنحتني تَدْرِيجِياً
كُلَّ مَا يَخُصُّكَ
وبِلاَ تَوَقُّف
استوليت على مَمْلَكتِكَ في أَعْمَاقِي
وفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْصُلُ على فَجْرِكَ مِنَ قَلْبِي
وتَجِدُ حُبَّك مَنْحُوتاً في صورة حَيَاتِي

(78)

لَقَد وَهَبْتَ الطُّيورَ تَغْرِيداً
وبِهَذا التَّغْرِيدِ تَرُدُّ إِلَيْكَ الفَضْلَ
أمّا أنا فَقَد مَنَحْتَني صَوْتاً فقط
ولَكِن إذا طَلَبْت المزِيدَ
فإِنَّني أُغَنِّي
لَقَد جَعَلْتَ رِيَاحَك خَفِيفَةً
فكَانت سَرِيعةً إلى خِدْمَتِكَ

أمّا أنا فقد جعَلْتَ يدَيَّ صقيلَتينْ

أجَل ، حتّى أقْدِرَ على التّخفيفِ مِن أعبَائِهما

وأظْفَرَ في النِّهَايَة بحُرِّيَةٍ كامِلَةٍ

تُمَكِّنُني مِن خِدْمَتِكَ

لَقد خلَقْتَ الأرْضَ

وغمَرْتَ ظِلالَها بالأضْوَاءِ المُتَناثِرَةِ

وهُناكَ توَقّفْتَ

وترَكْتَني بِيَدَيْنِ فارِغَتين

فوق التُّرابِ

وَانْصَرَفْتَ عنّي إلى خَلْقِ السَّمَاءِ

إنّك تُعطي لكل الأشياء في هَذا الكَوْنِ

أمّـــا أنـــا فإنّك

تَطْلُبُ مِنّي العَطَايا

إن حَصَاد حَيَاتِي

يَنْضِجُ بِحَرَارة الشَّمْسِ وغَزَارَةِ المَطَرِ

حَتَى يَتيسَّرَ أَن أَحْصُدَ أَكْثَرَ مِمَّا

زَرَعْتَ أَنْتَ

فيمتلىء قَلْبُكَ هَنَاءً

يَا سَيِّدَ الأَهْرَاءِ الذَّهبيَّة

(79)

أنْ لا أُصَلِّي لِكَي أَحْمِي نَفْسِي من الأَخْطَارِ

ولَكِن لِكَي أَكُونَ جريئاً في مُواجَهَتِهَا

وأن لاَ أَطْلُبَ أَن تُخَفِّفَ آلامِي

ولَكِن أَن تَكُون لِي الشَّجَاعَةُ للتَّفَوُّقِ عَلَيْها

أن لاَ أَبْحَثَ عن حُلَفاءَ في مَعْرَكَةِ الحَيَاةِ

سوى قُوَّتي الذَّاتِيَّة

أن لا أَلتَمِسَ خَلاَصي فِي خَوْفٍ قلِق

ولَكِن في أَنْ يُحَقِّقَ الصَّبْرُ أَمَلِي

في اكتِسَابِ حُرِّيَتِي

هيِّىء لِي ألاّ أكون جباناً

وأن أَبْلُوَ نِعْمَتَكَ في نَجَاحِي

وأَن أشْعُر بِضَمَّةِ يَدِكَ

في إِخْفَاقِي وخِذلانِي

(80)

لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ نَفْسَكَ حِينَ كُنْتَ تَسْكُنُ

وَحْدَكَ .

ولَم تكُن لِتَبْلَغَك أيُّ رِسَالَةٍ

حين كَانت الرِّيح تَجْرِي مِنَ شَاطِىءٍ إِلى آخر

لَقد جِئْتُ أَنَا

واستَفْقتَ أَنْتَ

وأَزْهَرَت السَّماءُ بِالألْوَانِ

وجَعَلْتَني أَتفتّح فِي عَدِيدِ الأَزْهَارِ

وهَدْهَدْتَني في مَهْدٍ مُتَعَدِّدِ الأَشْكَالِ

وأخفيتني في المَوْتِ

ثُمَّ ألفَيْتني مِن جَدِيدِ، في الحَيَاةِ

وجِئْتُ، وقد امتلأَ قَلْبُكَ

وَعَرفت الأَلَم والبَهْجَة

لقد لَمَسْتَني فَأَشعَلْتَنِي حُبّاً

ولَكِن فَوْق عَيْنَيّ هُنَاكَ

حِجَابٌ من الخَجَلِ

وفي صَدْرِي رجْفَة الخَوْفِ

وَوَجْهِي مَحْجُوبٌ

وإنّي لأَبْكِي حِين لاَ أَراكَ

ومع ذَلِك فَإني أَعْرِفُ الظَّمَأَ الشَّدِيدَ

لأَنْ تُطْلِعَني بِأَن فِيَ قلْبِك

ظَمَأً يَصْرَخُ بِبَابِي

الذِي يَطْرُقُه كُلَّ صَبَاح

مع أَشِعَّة الشَمس

(81)

إنَّك لتُصْغِي فَي سَهَرِك الخَالِدِ

إلى خُطُواتِي التي تَدْنُو مِنْكَ

بَيْنَمَا تَتَجَمَّع فَرْحَتُكَ

في بَشَائِر الصَّبَاحِ

وتَتَفجَّرُ في فَيْضِ النُّورِ

كُلَّما دَنَوْتُ مِنْكَ

كُلَّما ازْدَادَ عُمْقُ الحَمَاس

في رَقْصَةِ البَحْرِ

إن كَوْنَكَ لهوَ رشٌّ مِنَ النُّورِ

يَنْتَشِرُ وَيَتوَزَّعُ

مَالِئاً رَاحَتَيْكَ

ولَكِن سَمَاءَك في قَلْبِي الخَفِيِّ

الذِي يَفْتَحُ ببطء بَرَاعِمَهُ

(82)

سَأَنْطِقُ بِاسْمِكَ

جَالِساً وَحْدِي

بَيْنَ ظِلاَلِ أَفْكَارِي الصَّامِتَةِ

سأَنْطِقُ بِهِ بِلاَ غَايَةٍ

لأَنّي كالطِّفْلِ

الذي يَدْعُو أُمَّه مِئَةَ مَرَّةً

سَعِيداً بِمَعْرِفَتِه نُطْقَ كَلِمَةِ (أُمَّاه)

(83)

I

أُحِس أن جَميع النُّجوم تتأَلّق في أعماقي

وأن الكَوْنَ يتدفقُ في حياتي كالبَحرِ الهادِرِ

والأزهارَ تَتفتحُ في جَسَدِي

وشَبَابَ الأَرْضِ والماءِ يتصاعَدُ بَخُورُه

في قَلبي
وَنَفَسَ جَمِيعَ الأشياء
تعزِفُ فوق أفْكَارِي مِثل النَّاي

II

حِين يَغْفُو الكَوْن

فَإنِي أَحْضُرُ إلى بَابِكَ

النُّجُومُ صَامِتَةٌ

وَلاَ أَجْرُؤ عَلَى الغِنَاءِ
إِنِّي أَرْقُبُ وأَسْهَرُ

حَتَّى يَعْبُرَ طَيْفُكَ

شرْفَةَ اللَّيْل

فَأَرْجعُ بِقَلْبٍ مُتْرَعٍ فَيَّاضٍ

وفي الصَّبَاح

أَقِفَ عِنَد حافَّةِ الطَّرِيقِ

وأُغنِّي
فتُحَيِّيني زُهُور السَّهْلِ

ويُصغي إليّ نَسِيمُ الصَّباحِ
ويَقِفُ العَابِرُون فَجْأَةً
ويُحدِّقُونَ فِي وَجْهِي
يَحْسبونَ بِأَنّي هَتَفْتُ بِأسْمَائِهم

III

شُدَّنِي إلى بَابِكَ
دَوْماً فِي انتِظار رَغَباتِكَ
وَدَعْنِي أَجوبُ مَمْلَكَتَكَ
مُلَبِّياً دَعْوَتَكَ
لاَ تَذَرْنِي أَغْرَقُ وأَضْمَحِلّ في أَعْمَاق الخُمُولِ
ولاَ تَدَعْ حَياتِي تُسْتَهْلَكُ
وَتَتحَوَّلُ إلى أَسْمالٍ
بِفَقْرِ المَكَان المُدْقِع
ولاَ تَدَع الشُكُوكَ تَكْتَنفْنِي
بِغُبَارِ الشُّرودِ والغَفْلَةِ
لاَ تَدَعْني أَسْلُكْ طُرقاً مُخْتَلِفَةً

لأجْمعَ أشْيَاءَ عَدِيدَةً

وَلاَ تَذَرْنِي أَحْني قَلْبِي لِنير الكَثِيرين

ولَكِن دَعْنِي أَرْفعُ الرَّأْسَ عالِياً

فَخُوراً بِأَنْ أَكُونَ خَادِمَكَ

رجـــال المجاذيف

أَتَسْمَعُ مِن بعيدٍ

ضَجِيجَ المَوْتِ

وذَلِك النِّدَاءَ المُرْسَلَ

عَبْرَ أَنْهَارِ النَّارِ والغُيُومِ المَسْمُوعَةِ؟

وصَرَخ الرُّبَّان في المَلاَّحِ مَاسِكِ الدَّفَّةِ

أن يُوَجِّه السَّفِينَةَ نحو شَاطِيءٍ مَجْهُولٍ

فَقَد انتهى الزَّمَنُ الرَّاكِدُ فِي المِينَاء

وحين تُبَاعُ البَضَائِع القَدِيمَةُ

أَو تُشْتَرى في دَائِرةٍ لاَ حَدَّ لَها

وحين يَجْرُفَ سَيْلُ الفَرَاغِ الأَشْيَاءَ

المَيِّتَة

وفي غَيْبَةِ الحَقِيقَة

يَسْتَيْقِظُون بغتَةً فَزِعين

وَيَتساءَلُونَ

أيُّها الرِّفَاق أيّ سَاعَةٍ هذه التي دَقَّت الآن؟

ومَتَى يَبْزُغُ الفَجْرُ؟

إن الغُيُومَ قَد غَطَّت النُّجُومَ

فَمَن ذَا الذِي يَقدِرُ عَلَى رُؤيَةِ

الإِشَارَةِ التي تُومِىءُ إلى بِدَايَةِ النَّهَارِ؟

ويُهْرَعُون إلى الخَارِج رَاكِضين حَامِلين

مَجاذِيفهم في أيْدِيهم

وتَظَلُّ أَسِرَّتُهم فَارِغَةً

والأُمُّ تَدْعُو

والزَّوجَةُ تَرْقُب عِند عَتَبَةِ البَابِ

ويَرْتَفِع في السَّمَاءِ نَحِيبُ الوَدَاعِ

وصَوْتُ الربَّانِ يَهْتِفُ في الظَّلاَمِ

تَعَالَوْا أَيّها المَلاَّحُون

فإن وَقْت مُكُوثِنَا في المِيَاءِ قَد انْتَهى
إن كُلَّ شُرُورِ العَالَم السَّوْدَاءِ
قَد فَاضَت ودَمَّرت سُدُودَهَا
ومع ذَلك أيها المَلاَّحُون
خُذُوا أَمَاكِنَكَم
وأَطْوُوا قُلُوبكم على الحُزن
مِنَ الذِي تَلْعَنُون؟
فَاحْنَوا رُؤُوسَكَم
إن الخَطِيئَة كَانت خَطِيئتكم وخَطِيئتَنا
تلك الغَضْبَةُ النَّامِية عَبْر الأَحْقَابِ
في قَلْب الرَبّ
وجُبْنُ الضَّعِيفِ
وتَطَاوُلُ القَوِيِّ
وشَهْوَةُ الكَسْبِ والمَالِ
وحِقْد الإِنْسَان المُهَان
وكَبِرِيَاءُ العِرْق

وتَحْقِيرُ الإنْسَان لِلإِنْسَان

قَد هَشَّمَت سَلاَم الربّ

فَكَانت غَضْبَتُه هذه العَاصِفَة

وكَقِشْرَة الثَّمْرَةِ النَّاضِجَةِ

بَدَّدَت العَاصِفَةُ قَلْبَها أَجْزَاءَ

مُرْسِلَةً رُعُودَها عَلَيْكُم

يَكْفِي مِن الثَّرْثَرَةِ الجَرِيئة

المُعَبِّرة عن عِتَابِكم وتَزَلُّفِكُم

وبِهُدوءِ الدُّعاءِ الصَّامِتِ

البَادِيَ على جِبَاهِكُم

أَبْحِرُوا نَحْو ذَلِك الشَّاطِىء المَجْهُول

لَقد عَرَفْنَا الشُّرورَ والخَطَايَا كُلَّ يَوْم

وعَرَفْنَا المَوْتَ

وكَانَت تَمُرّ فوقْ كَوْنِنَا كَأَنَّها الغُيُومُ

تَسْخَرُ مِنَّا بابتِسَامَتِها الصَّاعِقَة

وفَجْأَة تَوَقَّفت هَذهِ الشُّرورُ

وحَدَثت المُعْجِزَة

وَوَقَف الرِّجَالُ فِي وَجْهِهَا قَائِلين :

نَحْنُ لا نَخْشاك، أيها الشَّبْح

لَقد عِشْنَا كُلَّ يوم مِن حَياتِنَا مِن أَجْلِ

أَن نَقْهَرَك ونَتَغَلَّبَ عَلَيْك

وسَوْف نَمُوت على الإيمان بِإن السِّلْمَ حَقٌ

واللَّه حَقٌ والخَالِد حَقٌ

فَإذا لَمَ يكُن الخَالِدُ نَازِلاً في قَلْبِ

المَوْت

وإذَا كَانت المَعْرِفَةُ البهيجَةُ

لاَ تَتَفَتَّح لِتُمَزِّقَ قِشْرَةَ الأَلَمِ

وإذا كَانَت الخَطِيئَة لاَ تَمُوتُ

كَاشِفَةً عن حَقِيقَتِها

وإذَا كَانَت الكِبْرِيَاءُ لاَ تَتَمَزَّقُ

تَحت عبءِ زِينَتِها وبهْرَجِها

فَمِن أين يأتي إذن

ذَلِك الأَمَلُ الذي يَدْفَع أَولئِك الرِّجَالَ

خَارِجَ بُيوتُهِم ، مِثْل النُّجُومِ التي

تَتَساقَط للمَوْت في ضَوْءِ الصَّبَاح ؟

إِن قِيمَة دَمِاء الشهداء

ودموعَ الامُّهَات

سَتضِيع في تُرَابِ الأَرْضِ

إِذا لَم تَمْتَلِك السَّمَاءَ بِثَمَنِهِ

ثم حِين يَتمَكَّنُ الإِنْسَانُ من

قَطْعِ عُرَاه الدنْيَوَيّة الفَانِية

ألا يَتَجَلّى لَه اللاَّنِهَائي أَنَذاكَ

أنشودة الهزيمة

حِين كُنْتُ عَلى حَافَّةِ الطَّرِيق

أَمَرَنِي مَوْلاَي

أَن أُغَنِّيَ أُغْنِيَةَ الهَزِيمَةِ

فَتِلْك هِيَ عَرْوسُه التي يُغَازِلُها في الخَفَاءِ

لَقد ارْتَدَت وِشَاحاً أَسْوَدَ

يَحْجُبُ وَجْهَهَا عَنِ النَّاسِ

ولَكِنَّ الجَوْهَرَة كَانَت تَتَأَلَّقُ فَوْقَ نَهْدِها

في الظلام

لقد استسلمتْ للنَّهَارِ.

ولَكِن لَيْلَ الرَبِّ

يَنْتَظِرُها بِشُموعِهِ المُوقَدَة

وزُهُورِه التي بَلَّلَها النَّدَى

إنّها صَامِتَةٌ

وعَيْنَاها خَاشِعَتَانِ

لقد هَجَرَت بَيْتَها

حِين تَنَاهَى إِليها

ذَلِك الخَفَقَانُ الذي تَحْمِلُه الرِّيحُ

ولَكِنَّ النُّجُوم كَانَت تُغَنِّي أُغنِيَةَ الخُلُودِ

لِذلك الوَجْهِ اللَّطِيفِ الذي تَمَازَجَ

في عُذُوبَتِه الخَجَلُ والأَلَمُ

لَقَد فَتَحَ بَابَ الغُرْفَةِ المُنْعَزِلَةِ

وعَزَفَ النِّدَاءَ

وخَفَق قَلْبُ الظَّلاَمِ

لِقُرْبِ المَوْعِدِ القَادِمِ

شكر

أَولئِك الذين يَسْلُكُون طَرِيقَ الكِبْرِيَاءِ
سَاحِقين تَحت أَقْدَامِهِم المَخْلُوقَاتِ المُتَواضِعَة
مُغَطِّين خُضْرَةَ الأَرْضِ الغَضَّةِ
بآثارِهم الدَّمَوِيَّة
يبتهجُوْن ويَرْفَعُون الشُكْرَ إِليكَ
يا إِلَهي
لأَنّ هَذا اليَوم يَوْمُهُم
ولَكِنّي أَشْكُركَ لأَِنّك جَعَلْتَ
نَصيبي مَعَ الفُقَراءِ المُتَواضِعِين
الذين يَتَعَذَّبُونَ
ويتحَمّلون عِبء التَّسَلُّطِ

مُوارين وُجُوهَهم

خَانِقين خَفَقَات قُلوبِهم في الظَّلاَمِ

ذَلِك أن كُلَّ خَفْقَةٍ من خَفَقَاتِ آلامِهِم

قد نَبَضَت في الهَاوِية الخَفِيَّة بِمن لَيْلِكَ

وكُلَّ إهَانَة قَد حَواهَا صَمْتُكَ الكَبِيرُ

إن الغَدَ لَهُم

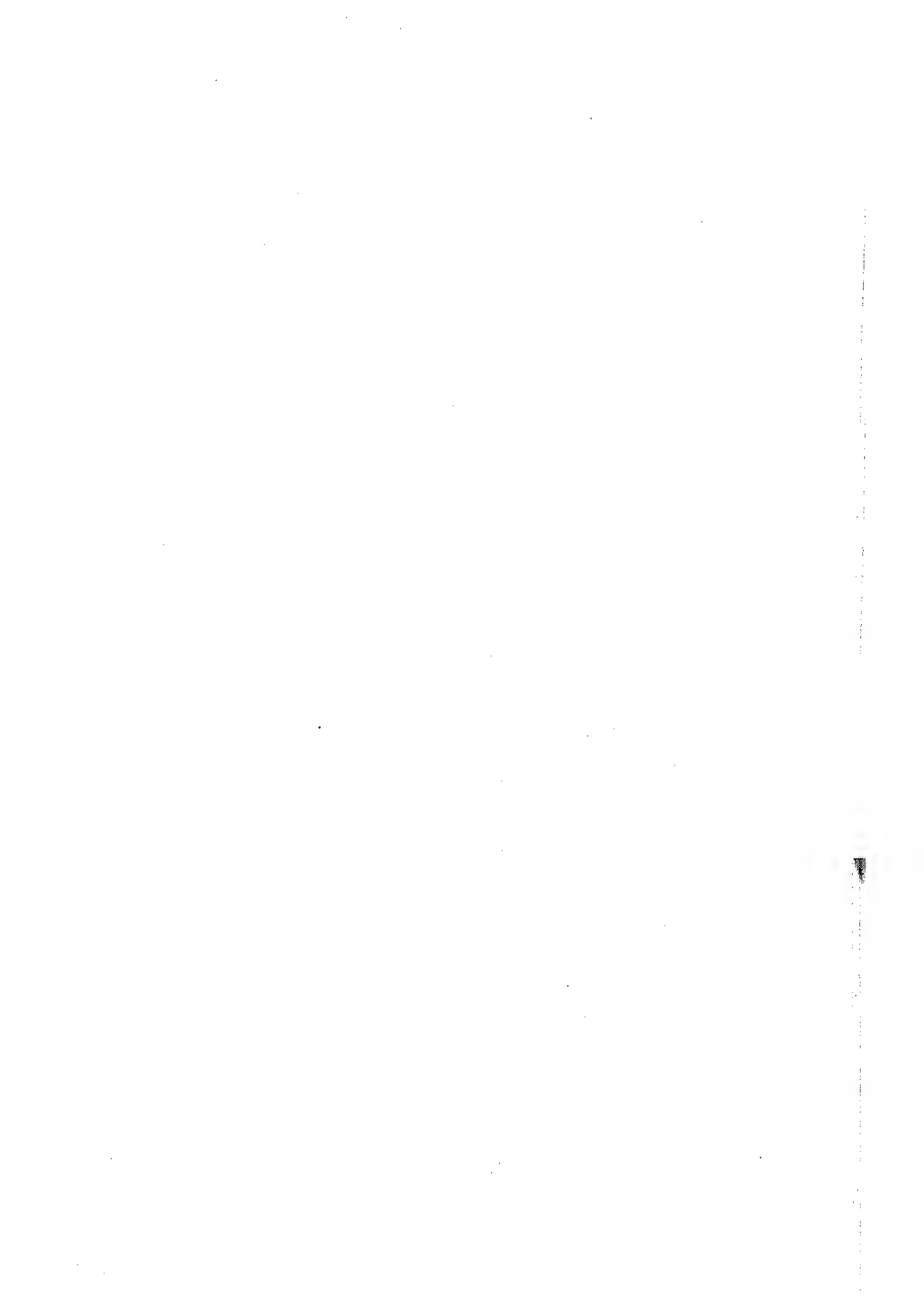
أيّتها الشَمْسُ

لِتُشْرِقي فَوْق القُلُوب الدَّامِيَةِ

التي تَتَفَتَّح في أَزْهَار الصَّباحِ

وفَوْق فُجُور الكِبْرَياء اللَّيْلِي

الذي تَحَوَّل إلى رَمَادِ



هَدِيَّةُ العَاشِق

②

تَعالَيْ يا حَبِيبتي

للتَّنزُّهِ في الحَدِيقَةِ

وتَخَطَّرِي قُرْبَ الزُّهُورِ العَاشِقَةِ

التي تَحْتَشِدُ عند رُؤْيَاكِ .

مُرِّي قُرْبَها وَتوقَّفِي

أَمَام بَهْجَةٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعةٍ

مِثل الغُروبِ الرَّائعِ

يُنِيرُ، ولَكِنَّه سرْعَانَ مَا يَزُولُ .

وَلأَنَّ عَطِيَّةَ الحُبِّ خَجُولٌ

فَإِنَّها لاَ تُعْلِنُ عَن اسمِهَا

إِنَّها تَتخَلَّلُ الظِّلاَلَ بِسُرْعَةٍ

نَاشِرَةً رجْفَةَ الفَرَحِ عَبْرَ التُّرابِ
فَخُذِيها خَطْفاً
أو افقديها إلى الأَبَدِ
فَالعَطِيَّةُ التي يُمْكِنُ الإِمْسَاكُ بها
لَيْسَت سِوَى زَهْرَةٍ نحيلَة
أَو وَمْضَةٍ من اللَّهِيبِ المُرْتجِفِ

4

أَنْتِ قَرِيبَةٌ مِن قَلْبِي
قُرْبَ زَهْرَةِ الحَقْلِ مِن الأَرْضِ .
وأَنتْ عَذْبَةٌ عِنْدِي
عُذُوبَةَ النَّوْمِ للأَعْضَاءِ المُرْهَقَةِ.
إِن حُبِّي لَكِ هو حَياتي
في تَدَفُّقِ امتِلاَئِها
مِثْلَ النَّهْرِ الفَائِضِ في الخَرِيفِ ،

المُتَدَفِّق في استِسْلاَم هَادِيء .

إن أَغَانِيَّ تَمْتَزِجُ بِحُبِّي

مِثْلَ خَرِير الجَدْوَلِ الذِي يغنِّي

بِكُلِّ أَمْوَاجِهِ، وكُلِّ تَيارَاتِه الهَادِرَةِ . .

لَوَ مَلكْتُ السَّمَاءَ بكُلِّ ما فِيها مِن نُجُومٍ،

والكَوْنَ بِكُلِّ ما فِيهِ من ثَروات هَائِلَة ،

فإني سَأَطْلُبُ المَزِيدَ .

ولَكِنّي سَأكونُ رَاضِياً قانِعاً

بأكثَر زَوايَا الأَرْضِ تَواضُعاً وبَسَاطَةً

لَو كُنْتِ أنتِ لِي

8

هُنَاكَ مَكَانٌ لَكِ

أَنْتِ وَحِيدَةٌ وليس مَعَكِ سِوى حُزْمَاتٍ

قَلِيلَةٍ من سَنَابِلِ الأَرْزِ .

إِن زَوْرَقِي مُزْدَحِمٌ

وحِمْلهُ ثَقِيلٌ

ولَكِن كَيف يُمْكِنُنِي أن أَطْرُدَكِ؟

قَوَامُكِ الشَّابُّ

نَحِيفٌ وَمُتَمَوِّجٌ

وابتِسَامَةٌ مَاكِرَةٌ

في طَرَفَيْ عَيْنَيْكِ

ولأَثْوَابِكِ أَلْوَانُ السَّحَابَةِ الصَيْفِيَّةِ

سَيَنزِلُ رُكَّاب الزَّوْرَقِ

ولَن تَجِدِي في نِهَايَةِ الرِّحْلَةِ

مَنْ يُؤْنِسُك بالحَدِيثِ

إلى أَين أَنتِ ذَاهِبَةٌ

وفي أي بَيْتٍ سَتُكَدِّسِين سَنَابِلَ الأُرْزِ؟

لَنْ أَسْأَلكِ

ولَكِن حِين أَطْوِي أَشْرِعَتِي

وأُرْسِي زَوْرَقِي
سَأَجْلِسُ عِنْدَ المسَاءِ مُفكِّرًا
وأَتَسَاءَلُ :
إِلى أَين أنتِ ذَاهِبَةٌ
وفي أَي بَيْتٍ سَتُكَدِّسِين سَنَابِلَ الأُرْزِ؟

13

البَارِحَةَ
قَدَّمْتُ إِلَيْكِ في الحَدِيقَةِ
نَبِيذَ شَبَابِي المُزْبِدَ
فَرَفَعْتِ الكَأْسَ إِلى شَفَتَيْكِ
وأَغْمَضْتِ عَيْنَيْكِ
وابتَسَمْتِ حِين رَفَعْتُ خِمَارَكِ
وَفَكَكْتُ ضَفَائِرَكِ
وجَذَبْتُ إِلى صَدْرِي

وَجْهَكِ الحُلْوَ بِصَمتِهِ الهَادِيءِ

البَارِحَة

حِينَ كان الحُلُمُ القَمَرِيّ

يَغْمُرُ الكَوْنَ الغَافِي .

واليومَ

وفي هُدُوءِ الفَجْرِ الطَرِيِّ بِالنَّدَى

كُنْتِ تَمْشِينَ نَحْوَ مَعْبَدِ الرَّبِّ

مُغْتَسِلَةً ، مُرتَدِيَةَ البَيَاضَ

وفِي يَدِكِ سَلَّةٌ مِن الزُّهُورِ

أَمَّا أَنَا فَقد اعتَزَلْتُ جَانِباً

وَوَقَفْتُ في ظِلِّ شَجَرَةٍ

خَافِضَ الرَّأْسِ

في هُدُوءِ الفَجْرِ

قُرْبَ طَرِيقِ المَعْبَدِ المَهْجُورَةِ

16

هِي تَسكُنُ قُرْبَ الغَدِيرِ
ذي الأَرْصِفَةِ العَتِيقَةِ البَالِيَةِ
مَا أكثَر الأُمْسِيَاتِ التي رَأَيْتُ فِيهَا القَمَرَ
مُضْطَرِباً بَيْن أَوْرَاقِ البَامْبُو التي كَانَت تَهُزُّهَا الرِّيَاحُ
وفي كَثِيرٍ مِن أيَّامِ المَطَرِ
كان عِطْرُ الأَرْضِ البَلِيلَةِ
يَصِلُ إلَيْها
فَوْقَ بَراعِمِ الأُرْزِ.
إن صِيغَةَ الدَّلاَلِ لاِسْمِهَا مَعْرُوفَةٌ
هُنَا بَيْن غَاباتِ النَّخِيلِ الصَّغِيرة
وفي السَّاحَاتِ التي يَجْلِس فِيهَا الصَّبَايَا
للثَّرْثَرَة وخِياطَة تَطْرِيزَاتِهِنَّ الشَّتْوِيَّةِ.
ومِيَاهُ الغَدِير

تَحْفَظُ ذِكْرى أَطْرَافِها الجَسَدِيَّة

حِينَ كَانت تَسْبَحُ فِيهَا

وقَدَمَاهَا المُبَلَّلتَان تَرَكَتا آثَارَهُمَا

يَوْمَاً بَعْدَ يَوْمٍ

فُوْقَ الدَّربِ المُؤدِي إِلى القَرْيَةِ

والنِّسْوَةُ اللَّواتِي يَأْتِينَ اليَوْمَ لِغَرْفِ المَاءِ

رَأَيْنَ ابتِسَامَتَها

التي تَرُدُّ بِهَا عَلَى المُدَاعَباتِ البَسِيطَةِ السَّاذَجَةِ

والفَلاَّحُ العَجُوزُ الذي يَسُوقُ عُجُولَهُ

الصَّغِيرةَ لِغَسْلِها في النهْرِ، كَانَ يتَوقَّفُ كُلّ يوم

أَمَامَ بيْتِها لِيُحَيِّيهَا

وكَثِيرٌ من الزَّوَارِق الشِّراعِيَةِ

تَمُرُّ قُرْبَ هَذِه القَرْيَةِ

وكَثِيرٌ مِن العَابِرِين يَتَوقَّفُونُ لِلرَّاحَةِ

تَحْتُ شَجَرَة البَانِيَانِ

وكَثِيرٌ مِن المَرَاكِب تُبْحِرُ نحْوَ الضِفَّةِ الأُخْرَى

وعَلَى ظَهْرِهَا أُنَاسٌ يَقْصِدُو نَ السُّوقَ

ولَكِنَّهم لاَ يُلاَحِظُو نَ أَبَداً هَذا المَكَانَ

الوَاقِعَ عَلَى طَرِيقِ القَرْيَةِ

قُرْبَ الأَرْصِفَة العَتِيقَة البَالِيَةِ

حَيْثُ تَسْكُنُ المَرَأَةُ التي أُحِبُّهَا

18

إِذَا كُنْتِ تَرْغَبِينَ

فِي أَن تَهَبِيني قَلْبَكِ

فإنّ أَيَامَكَ سَتَكُونُ مَلِيئةً بالآلامِ

فَإِنَّ لِبَيْتِي أَبْوَاباً مَفْتُوحَةً.

وفِكْرِي شَارِدٌ

لأَنِّي أُغَنِّي.

إِذَا كُنْتِ حَقّاً تَرْغَبِينَ

فِي أَن تهبِيني قَلْبَكِ

فَإِنِّي أَنَبِّهُكِ

إِلى أَنِّي لَن أكونَ قَادِراً عَلَى الاستِجَابَةِ

فَإِذا أَعْطَيْتُكَ الآن كَلِمَتِي مُغَنِّياً

وكُنْتُ مُقْتَنِعاً في الوَفاءِ بِهَا

فَعَلَيْكِ أَن تَعْذُرِينِي

حِينَ تَكُفُّ المُوسِيقَى عَنِ العَزْفِ

إِذ مِن الخَيْرِ للعَهْدِ الذي تَقَرَّر في شَهْرِ مَايُو

أن يُنْقَضَ في شَهرِ دِيسمبر

وَإِذَا كُنْتِ حَقّاً تَرْغَبِينَ

فِي أَن تَهَبِينِي قَلْبَكِ

فَلاَ تَذْكُرِيه على الدَّوَامِ

وحِينَ تُغَنِّـــي عَيْنَاكِ بِالحُبِّ

وَيَتَمَوَّجُ صَوْتُكِ بِالضَّحَكَاتِ

فَإِنَّ إِجَابَتِي لِمَا تَطْلُبينه

سَتَكُونُ عَاطِفِيَّةً

ولَكِنَّها لَيْسَت دَقِيقَةً في وَقَائِعَها

وَعَلَيْكِ أَن تُصَدِّقِيها إلى الأَبَدِ

لِكَي تَنْسَيها بَعْدَ ذَلِك

إِلى الأَبَدِ

19

جَاءَ فِي الكِتَابِ

أَنَّهُ إِذَا بَلَغَ المَرْءُ الخَمْسِينَ

فَعَلَيْهِ أَن يَتَخَلَّى عَن هَذا العَالَمِ الصَّاخِبِ

لِيَنْصَرِفُ إِلى الوَحْدَةِ

في الغاب .

ولَكِنَّ الشَّاعِرَ يُعْلِنُ :

أَنَّ الاعتِكَافَ في الغَابِ

لاَ يَصْلُحُ إِلاَّ للشّباب .

فَهُنَاكَ تُولَدُ الطُّيُورُ

وهُنَاكَ مُلْتَقى النَّحْلِ والطُّيُورِ

وهُنَاك الزَّوايَا الخَفِيةِ التي تَنْتَظِرُ

رعْشَةَ هَمَسَات العُشَّاقِ .

هُنَاك نُورُ القَمَرِ

الذِي يَتَجَمَّعُ كُلُّه فِي قُبْلَةٍ
يَضَعُها عَلى أَفْوَافِ الزُّهُورِ.
ولِهَذَا النُّورِ رِسَالَتُه العَمِيقَةُ
وَلاَ يَفْهَمُهَا إِلاَّ مَن كَان دُونَ الخَمْسِين.
واأسفاهُ!
إن الشَبَابَ لَعَنِيدٌ
وقَلِيلُ التَّجْرِبَةِ.
وَلِذا فَإِنَّه من الإنصَافِ أَن يُعْنَى الشُّيُوخُ
بالأُسَرِ.
وأَن يَتَوَجَّهَ الشَّبَابُ
إلى خَلْوَةِ الاعتِكَافِ في الغَابِ،
والتَّقَيُّدِ بِنِظَامِ المُغَازَلَةِ الصَّارِمِ.

(22)

إنِّي أَتْرُكُ عَن طَوَاعِيَّةٍ

زَهْرَةَ الثَّقافَةِ،

تَنْطَفِئُ في بَيْتي

لِتُولَدَ فِي مُسْتَقْبِلٍ سَعِيدٍ

فِي شَخْصٍ رَاعٍ صَغِيرٍ فِي غَابَاتِ (بِرِنْدا)

الرَّاعِي الذي يَرْعَى قُطْعَانَهُ

جَالِساً تَحْتَ شَجرِ البنيان

وهو يَضْفِرُ فِي كَسَلٍ أكالِيلَ زَهْرَ القُونْجَا

وَهُو يُحِبُّ الغَوْصَ والتَّخَبُّطَ

في مجاري نَهْر جَامُونا البَارِدَةِ العَمِيقَةِ

إنَّهُ يُوقِظُ رِفَاقَهُ

حِين يَبْزُغُ الصَّبَاحُ

وفِي كُلِّ بُيُوتِ الدَّرْبِ

يَتَرَدَّدُ صَدَى

والبَهائِمُ تُثِيرُ سُحُباً من الغُبَارِ

والصَّبَايَا يَخْرُجْنَ إِلى بَاحَات البُيُوتِ

لِحَلْبِ الأَبْقَارِ
وعِنْدَما يَتكَاثَفُ الظِلُّ تحت أَشْجَارِ الطُّومَال
وَيَتَجهَّمُ الغُروبُ فِي ضِفَاف النَّهْرِ
وعِنْدَمَا تَعْبُر الحَلاَّبَاتُ مِيَاهَ النَّهْرِ
الهَائِجَةَ ، ويَرْتَجِفْنَ مِن الخَوْفِ
وعِنْدَما تَقُومُ طُيُور الطَّاوُوس الثَرْثَارَة
بالرَّقْص في الغَابِ رقصة دَائِرِيَّة
يَنْظُرُ هُو الغُيُومَ الصَّيْفِيَّةَ
وحِينَ يَكُونُ اللَّيْلُ في إبريل عَذْباً
مِثْلَ الزَّهْرَةِ الحَديثَةِ التَفَتُّح
يَبْدُو هُو في الغَابِ
وقد غَرَزَ في شَعْرِ رَأْسِه رِيشَة نَعَام
وحِبَالُ الأَراجِيحِ في الغَابَةِ
تَبْدُو معَ الزُّهُورِ المُتَفَتِّحَة فَوْقَ الأَغْصَانِ
ورِيحُ الجَنُوبِ تَرْتَجِفُ بالمُوسِيقَى

والرُّعَاةُ الصِّغَارُ الفَرِحُون يَتَجَمَّعُونَ
عَلى ضِفَافِ النَّهرِ الأَزْرَقِ
كَلاَّ يا إِخْوَتِي
مَا كَان لِي أَنْ أَكونَ زَعِيمَ هَذا العَهْدِ
الجَدِيدِ، في البنغال الجَدِيدَةِ
وَمَا كُنْتُ لأَهْتَمَّ بِأَنَّ أُضِيءَ
نُورَ الثَّقافَة لِلجَاهِلِين
لَو كُنْتُ قَدْ وَلِدْتُ تَحْتَ
الغَابَاتِ الصَّغِيرَة الظَّلِيلَةِ
في أَيِّ قَرْيَةٍ مِن قُرَى بِرِنْدَا
حَيْثُ الصَّبَايَا يَحْلِبْنَ البَقراتَ .

(39)

هُنَاكَ رَقِيبٌ مُنْتَبِهٌ يَجْلِسُ خَلْفَ عُيُونِي
ويَبْدُو أنَّهُ قَد رَأَى حَوادِثَ الأَكْوَانِ

والعُهُودِ
بِمَا يَتَجَاوَزُ شَاطِئَ الذَّاكِرَةِ
وهَذِهِ الرُّؤَى المَنْسِيَّةُ
تُومِضُ فَوْقَ العُشبِ
وتَرْتَجِفُ فَوْقَ الأَوراقِ
لَقَد رَأَى تَحْتَ خُمُرٍ جَدِيدَةٍ
وَجْهَ حَبِيبَتِهِ الوَحِيدَةِ
في سَاعَةِ غروبِ كَثيرٍ مِن النُّجُومِ
التي لاَ أَسْمَاءَ لَها .
وَلِذَا كَانَت سَمَاؤُهُ تَبْدُو
وهي تَتَعَذَّبُ بِعَذَابٍ لاَ حَدَّ لَهُ
من اللِّقَاءِ والفِرَاقِ
وَرَغْبَةٌ تَكْتَسِحُ هَذا النَّسِيمَ الرَّبِيعِي
رَغْبَةٌ جَامِحَةٌ في تَنَهُّدَاتِ
العُصُورِ التي لَم تَبْدَأْ أَبَداً

(40)

رِسَالَةٌ بَلَغَتْنِي

مِن شَبَابِي

في الأيَّام الخَالِيَةِ:

إِني فِي انتِظَارِكَ

في خَفقَاتِ شَهْرَ مَايُو

القَادِمِ مِن بَعِيد

حَيْثُ الابتِسَامَاتُ تَنْضجُ في الدُّمُوعِ

والسَّاعَاتَ تَتَوَجَّعُ لأَغَانِ لَم تُغَنَّ

فَأَدْرِكْنِي

عَبْرَ دَرْب الزَّمنِ آلبالي

وعَبْرَ بَوَّابَات المَوْتِ.

ذَلِك أَن الأَحْلاَمَ تَتلاَشى

والآمالَ تَظَلُّ غَيْرَ مُنْتَظَرَةٍ

والفَوَاكِهَ المقطوفة تُنْتِنُ

ولَكِنِّي أَنَا الحَقِيقَةُ الخَالِدَةُ

ستلتقي بِي دَائِماً، ومِنْ جَدِيدٍ،

42

فِي رِحْلَة حَياتِكَ

مِن شَاطِيءِ إلى آخَرَ.

أَنْتِ مُجَرَّدُ صُورَةٍ مَرْسُومَةٍ

ولَسْتِ شَيْئاً حَقِيقِيّاً كالنُّجُومِ

وحَقِيقياً كَهَذَا التُّرابِ

إنَّها كُلُّهَا تَرْتَجِفُ بِخَفْقَة الحَيَاةِ

أَمَّا أَنْتِ فَبَعِيدَةٌ بُعْداً سَحِيقاً

فِي صَمْتِكِ.

مُجَرَّدُ صُورَةٍ مرسومة.

كَانَ ذَلِك في اليَوْمِ الذِي صَحِبتِني إلى النُّزْهَةِ

وكَانَت أَعْضَاؤُكِ كُلُّها تتغَنَّى بِالحَيَاةِ.

وَوَجَد كَوْني لُغَتَهُ في صَوْتِكِ

ولَمسْتِ قَلْبي بِمُحَيَّاكِ
ثُمَّ فَجأةً أَوْقَفْتِ خُطُواتِكِ
في ظِلّ الخُلُودِ
وتَابَعْتُ الطَّرِيقَ وَحْدِي .
إِنَّ الحَيَاةَ كالطِّفْلِ
يَضْحَكُ
وهوَ يَلْهُو بِرَنِينِ أَجْرَاسِ المَوْتِ
وَحِين كُنْتِ تَتَقَدَّمِين مُسْرِعَةً
كُنت تَدْعِينَني فَأُتَابعُ اللاَّمَنْظُورَ
ولَكِنَّك كُنْتِ هُنَاكَ ،
حَيْثُ تَوَقَّفْتِ خَلْفَ التَّرابِ ،
وخَلْفَ النُّجُومِ
وكُنْتِ مُجَرَّدَ صُوَرةٍ مَرْسُومَةٍ .
لاَ . . لاَ يُمْكِنُ
إِذَا كَان مَدُّ الحَيَاةِ قَد تَوَقَّفَ فيك

إِلى الأَبَدِ
فَسَيَتَوَقَّفُ النَّهْرُ عَنْ جريانه
وتَتوقَّفُ خُطُواتُ الفَجْرِ في إِيقَاعَاتِ
أَلْوَانِها
وإذَا كَان البَرِيقُ الوَاهِنُ لِشَعْرِكِ
قَدْ تلاَشَى في الظَّلاَمِ دُونَ أَمَلٍ
فَإِنَّ ظِلاَلَ الصَّيْفِ في الغَاب
تَمُوتُ هي وأَحْلاَمُهَا .
أَيَمْكِنُ حَقّاً أَنْ أَنْسَاكِ؟
إِنَّنا نُتَابِعُ طَرِيقَنَا بِلاَ انتِبَاهٍ
نَاسِينَ الزُّهُورَ المُنْتَشِرَة
في السَّهْلِ أَو عَلى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ
ومَع ذَلك فَإِنَّها تُواصِلُ إِرسَالَ عِطْرِهَا
مُتَجَاهِلَةً نِسْيَانَنا
مُفْعِمَةً إِيَّاهُ بِالمُوسِيقَى .

لَقَد ابتَعَدْتِ عَن عَالَمِي

لِتَأخُذِي مَكَانَكِ في جُذُور حياتي

ولِذَا فَإن هَذَا النِّسْيانَ

هُو ذِكْرَى ضَائِعَةٌ في الأعْمَاق.

لَم تَعُودِي أَمَامَ أُغْنِيَاتِي

ولَكِنَّكِ مُنْصَهِرَةٌ فِيهَا

وتَأْتِين إليَّ مَع أَوَّلِ أَشِعَّةِ الفَجْر.

لَقَد فَقَدْتُكِ في آخر الذَّهَبِ المَسَائِي

ومُنْذُ ذَلِك الحِينِ صرت أعثر عليك

عَبْرَ الظُّلْمَةِ

كَلاَّ.. أَنْتِ لَسْتِ مُجَرَّدَ

صُورَةٍ مَرْسُومَةٍ.

(43)

بمَوْتِكِ

تَرَكْتِ خَلْفَكِ

الحُزْنَ الأَبَدِيَّ العَظِيم

فِي حَيَاتي

ولوَّنْتِ أُفْقَ أَفْكَارِي

بِأَلوانِ غُرُوبِ رَحِيلِكِ

تَارِكاً مَسَاراً مِن الدُّمُوعِ

منطلقاً

عبر الأَرْضِ حَتَى سَمَاءِ الحبّ

وبَيْنَ ضَمَّة ذِرَاعَيْكِ الرَائِعَتَيْن العَزِيزَتَيْن

تَوَحَّدَت في نَفْسِي الحَيَاةُ والمَوْتُ

فِي رِبَاطِ زَوْجِي .

يَبْدُو لِي أَنِّي أَرَاكِ

تَرْقُبِين مِن الشُّرْفَةِ

بَمِصْبَاحِك المُنير

إلى حيث تلتقي النِّهايَةُ والبَدَايَةُ

لِكُلِّ الأَشْيَاء ،

لَقَد دَخَل كَوْنِي مِن الأَبْوَاب التي فَتَحْتِهَا
أَنْتِ التي تَرْفَعِين كَأْس المَوتِ
إلى شَفَتَيَّ ، وقَد مَلأْتِهَا حَيَاةً
بِحَيَاتِكَ .

(47)

الطَّرِيقُ رَفِيقَتِي
تَتَحَدَّث إِليّ ، تَحْتَ أَقْدَامِي ، طُول اليَوْمِ
وتُغَنِّي لأَحْلاَمِي ، طُولَ اللَّيْلِ
لَيْس لِلقَائِي بِهَا بِدَايَةٌ
وهو يَبْدَأُ كُلَّ يَوْمٍ دُونَ نِهَاية
مُجَدَّدَةً صَيْفَها
في أَزْهَارٍ طَرِيَّةٍ وأُغْنِيَاتٍ عَذْبَةٍ
وكُلُّ قُبْلَةٍ جَدِيدَةٍ
هِيَ القُبْلَةُ الأُولَى عِنْدِي .

أَنَا والطَّرِيقُ عَاشِقَانِ
إِنِّي أُغَيِّرُ مَلاَبِسِي مِن أَجْلِهَا
كُلَّ لَيْلَةٍ
وأَتْرُكُ ثِقَلَ الأَسْمَالِ البَالِية
في الخَانَات التي تَنْتَشِرُ عَلَى الطّريقِ
عِنْدَما يَشْرقُ النَّهَار

48

كُنْتُ أَقْطَعُ كُلَّ يَوْمٍ الطَّرِيقِ القَدِيمَةِ نفْسَهَا
حَامِلاً فواكِهي إلى السُّوق
أَو قَطِيعي الصَّغِيرَ إلى المَرْعَى
كَمَا كُنْتُ أَعْبُرُ النَّهْرَ بِزَوْرَقِي
وكُلُّ الدُّرُوبِ مَعْرُوفَةٌ عِنْدِي
وفِي صَبَاح أَحَدِ الأَيامِ
كانت سَلَّتِي مَلآىءَ بالسِّلَعِ

كان الرِّجَالُ مُنْصَرِفِين إلى أَعْمَالِ الحَقْلِ
والمَراعِي عَامِرَةً بالقُطْعَانِ
ونَهْدُ الأَرْضِ مُنْتَفِخاً بِبَهْجَةِ
الأُرْز الذِي يَنْضِجُ
وَبَغْتَةً كَانَت هُنَاكَ رجْفَةٌ قَوِيَّةٌ فِي الجَوِّ
وبَدَت السَّمَاءُ وكَأَنَّها تُقَبِّلُنِي في جَبِينِي
وَقَفَزَ تَفْكِيري وظَهَرَ ظُهُورَ الصَّباح عَلَى الضَّبَابِ
ونَسِيتُ مُتَابَعَة السَّيْرِ في الطَّريق المَعْهُودَةِ
وانحَرَفْتُ عَنْها بِضْعَ خُطُوَاتٍ
وَبَدَا لِي عَالَمِي المَأْلُوفُ غَرِيباً عَنِّي
مِثْلَ الزَّهْرَةِ التي لَم أَعرِفْهَا إلا عِنْدَما كَانَتْ بُرْعُماً
وشَعَرَت مَعْرِفَتِي بِالحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ بِالخَجَلِ .
لَقَد انْحَرَفْتُ إلى طَرِيقِ العَالَم المَسْحُورِ
المَفْتُونِ بِالأَشْيَاءِ .
وكَان مِن أَعْظَمِ حُظُوظِ حَيَاتِي

أَن ضَلَلْتُ الطَّرِيقَ في ذَلِك الصَّبَاح ،
وأَن أَجِدَ صِبَاي الخَالِدَ .

49

سَأَلَنِي الطِّفْلُ
أَيْنَ يَقَعُ الفِرْدَوْسُ؟
يَقُولُ الحُكَمَاءُ :
إِنَّه يَقَع فَيمَا وَرَاءَ حُدُودِ الحَيَاةِ والمَوْت .
وَلاَ يَخْضَعُ لِنظَام اللَّيْل ِ والنَّهارِ .
ولَيْسَت لَهُ صِفَةٌ مِن صِفَات الأَرْض ِ .
ولَكِنَّ شَاعِرَكَ يَعْرِفُ ،
أَنَّه جَائِعٌ جُوعاً أَبَدِيّاً للزَّمَانِ والمَكَانِ
وهو يُصَارِعُ دَوْمَاً لِكَي يُولَدَ في الأَرْض ِ الخَصِيبةِ
إِنَّ الفِرْدَوَس فِي جَسَدِكَ اللَّطيفِ
يَا طِفْلِي .

وفي قَلْبِكَ الخَفَّاق .

إِن البَحْرَ يَدُقُّ طُبُولَ الفَرحِ ،

والزُّهُورَ تَشْرَئِبُّ وتَقِفُ عَلَى أَطْرَافِ

أَقْدَامِها لِتُقَبِّلَكَ

لأَنَّ الفِرْدَوْسَ وُلِدَ مَعَكَ

في أَحْضَانِ أُمِّنَا الأَرض .

54

فِي بِدَايَاتِ الأَزْمِنَةِ

ومِن غَلَيَانِ أَحْلاَم الرَبّ

ظَهَرت امْرَأَتَانِ

وَاحِدَةٌ هي التي تَرْقُصُ في بِلاَطِ الفِرْدَوْسِ

بَشَهَواتِ الرِّجَالِ

وهِي تِلْك الضَّاحِكَةُ التي تَجْتَذِبُ

عُقُولَ الحُكَمَاءَ وتَصرِفُهُم عن تَأَمُّلاَتِهِم

كَما تُخْرِجُ الأَغْبِيَاء مِن فَراغِهِم

وتَنْثُرُهم كَما تَنثُرُ البُذُورُ

فِي عَبثٍ إلى رِيَاحِ مَارِس غَيْر المَأْلوفَةِ

أَو فِي فَوْرَةِ مَايُو المُزْهِرَةِ

أَمَّا الأُخْرَى فَهِي مَلِكَة السَّماءِ

إِنَّها الأُمُّ الجَالِسَةُ عَلَى عَرْشِ

فَيْضِ الخَرِيف الذَّهَبِي

هي التِي تَقُودُ القُلُوبَ الضَّالَةَ

في مَوْسَم الحَصَادِ

إلى ابتِسَامَة حُلْوَة كالدُّمُوعِ

والجَمَالُ العَمِيقُ عُمْقَ بَحْرِ الصَّمْتِ

وتَحْمِلُها إلى مَعْبَد المَجْهُولِ

إلى التَلاَقِي المُقَدَّسِ

لِلحَيَاة والمَوْتِ

كَانَ مَسَائِي مُتَّسِماً بِطَابِعَ الوَحْدَةِ
وكُنْتُ أَقْرَأُ في كِتابٍ
حَتَّى جَفَّ قَلْبِي ، وبَدَا لِي أَنَّ الجَمَالَ شَيْءٌ
يَصُوغُهُ تُجَّارُ الكَلِمَات .
وحِينَ شَعَرْتُ بالتَّعَبِ ، أَغْلَقْتُ الكِتَابَ
وأَطْفَأْتُ المِصْبَاحَ ، وفِي لَحْظَةٍ
خَاطِفَةٍ غَمَر الغُرْفَةَ فَيْضٌ مِن نُورِ القَمَرِ
يَا رُوحَ الجَمالِ
أَيتها الرَّوْعَةُ التي تُفْعِمُ السَّماءَ
كَيْف يُمْكِنُكِ الاخْتِفَاءُ
وَراءَ لَهِيبٍ هَزِيلٍ يَنْبَعِثُ مِن شَمْعَةٍ؟
كَيْف يُمْكِنُ لِكَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ غَامِضَةٍ
أَن تَرْتَفِعَ مِن صَفَحَاتِ الكِتَابِ
كَما يَرْتَفِعُ الضَّبَابُ

وَتكْشِفَ عَنْكَ
أَنْتَ الذِي سكَّن صَوْتُك
قَلْبِ الأرْضِ
في هُدُوءٍ يَفُوقُ الوَصْفَ؟

58

أَشْيَاءُ تَتجَمَّعُ وَتَضْحَكُ بِصَوْتٍ عَالٍ فِي السَّمَاءِ
والرِّمالُ والتُّرابُ تَترَاقَصَ وتَدُور
مِثْلَ الأَطْفَالِ
وفِكْرُ الإِنْسَان استَيْقَظَ عَلَى صُراخِهِم
وكَانَت أَفْكَارُه تَرْغَبُ أَن تكُون رفيقةً لهم
فِي لُعْبَةِ الأَشْيَاءِ
إن أَحْلاَمَنا المُتَدَفِّقَةَ في تيَّارِ العَبثِ
تَبْسِطُ ذِرَاعَيْها لِتُعَانِقَ الأَرْضَ
وَيَتَحَقَّقَ مَجْهُودُها في صُخُورٍ وآجرٍّ

وهَكَذا أُسِّسَت المُدُنُ.

أصْوَاتٌ تَأْتِي

مِن المَاضِي

وخَفَقَانُ أَجْنِحَتها يملأ الجَوَّ بِظَلاَلِ خَافِقَةٍ

والأَفْكَارُ المُسَهَّدَةُ فِي تَفْكِيرِنَا

تَتْرُكُ الوَكْرَ لِتُحلِّقَ في صَحْرَاءِ الظُّلْمَةِ

فِي الظَّمَأ اللاَّهِفِ إلى الأَشْكَالِ

إِنَّهم حُجَّاجٌ بَلاَ ضَوْءٍ

يَبْحَثُونَ عَن شَاطِئِ النُّورِ

حَتَّى يَجِدُوا أَنْفُسَهم في الأَشْيَاءِ

سَوْفَ تَجْتَذِبُهم قَوَافِي الشُّعَراءِ

وسَيَنْزِلُون فِي أَبْرَاجِ مُدُنٍ

لَم تُخَطَّطْ بَعْدُ

وسيُدْعَونْ إلى الجُنْدِيَّةَ للمُشَارَكةِ

فِي مَعارِك المُسْتَقبَلِ

ومُقَدَّرٌ لَهُم أن يُوَحِّدُوا الأَيْدِي
في الصِّراع مِن أَجْل السِّلْم التِي
سَوْفَ تأْتِي

(60)

اسْتَرْجِعْ نُقُودَكَ
يَا مُسْتَشَارَ المَلِكِ.

أَنَا واحِدَةٌ من النِّسَاءِ اللَّواتِي بَعَثَتْ
بِهِنَّ إِلى المَعْبَدِ في الغَابِ
لِيُوقِعْنَ النَّاسِكَ الشَّابَ الذِي لَمْ يَرَ امرأةً قَطّ.
إِن مُهِمَّتِي قَد أَخْفَقَت.
كان النَّهَارُ يَبْزُغُ حِين جَاء النَّاسِكُ الشابُّ.
لِيَسْتَحِمَّ في الجَدْوَلِ
وقد انْسَابَت على ظَهْرِهِ خُصُلاَتُ
شَعْرِهِ الكَثِيفَةِ السَّمْرَاء
مِثْل عُنْقُودٍ من غُيُوم الصَّباحِ

وكانت أَطْرَافُه تَتَأَلَّقُ كَحُزْمَةٍ
من أَشِعَّة الشَّمْسِ
وكُنَّا نُغَنِي ضَاحِكَاتٍ
ونُجَدِّفُ بزَوْرَقِنَا
وأَلْقَيْنَا أَنْفسِنا في فَرْحَةٍ مجْنُونَةٍ
إلى العَوْمِ في النَّهْرِ، كَمَا رَقَصْنَا حَوْلَهُ

حِينَ بَزَغَت الشَّمْسُ وَرَمَقَتْنَا مِن
حَوافِي المَاءِ في فَوْرَةَ حَمَراءَ مِن الغَضَبِ
المُقَدَّسِ.
ومثل صبي قديس، فَتحَ عَيْنَيْهِ
ورَاقب حَرَكاتِنَا مُنْدَهِشاً
ثمّ تَأَلَّقت عَيْنَاه كَما تَتَأَلَقُ نُجُوم الصَّبَاحِ
فَأَطْلَق يَدَيْهِ المَضْمُومَتين
وغَنَّى أُنْشُودَةً من أَنَاشِيدِ الشُكْرِ
بِصَوْتِه الشّابِ الذِي يُشْبِهُ تَغْرِيدَ

العُصْفُورِ

فَهَزَّ كُلَّ وَرَقَةٍ في الغَابِ .

أَبَداً لَم تُغَنَّ مِثْلُ هَذِهِ الكَلِمَاتِ

لامرَأَةٍ فَانِيَةٍ

قَبْل ذَلِكَ كَانَت مِثْلَ الأَنَاشِيدِ الصَّامِتَةِ

التِي تَرْفَعُها الهِضَابُ الصَّامِتَه إلى الفَجْرِ

وأَخْفَت النِّسَاء ثُغُورَها بِأَيدِيهَا

فَاهْتَزَّ جَسَدُهُ لِهذه الضَّحَكَاتِ

وسَحَابَةٌ كَثِيفَةٌ من الشَّكِّ عَبَرَت وَجْهَهُ

وبِسُرْعةٍ جِئْتُ إِلى جَانِبِهِ

وَفِي نَفْسِي أَلَمٌ عَمِيقٌ

وانْحَنَيْتُ أَمَامَ قَدَمَيْهِ قَائِلَةً :

يَا سَيِّدِي . . اقْبلْ خِدْمَتِي

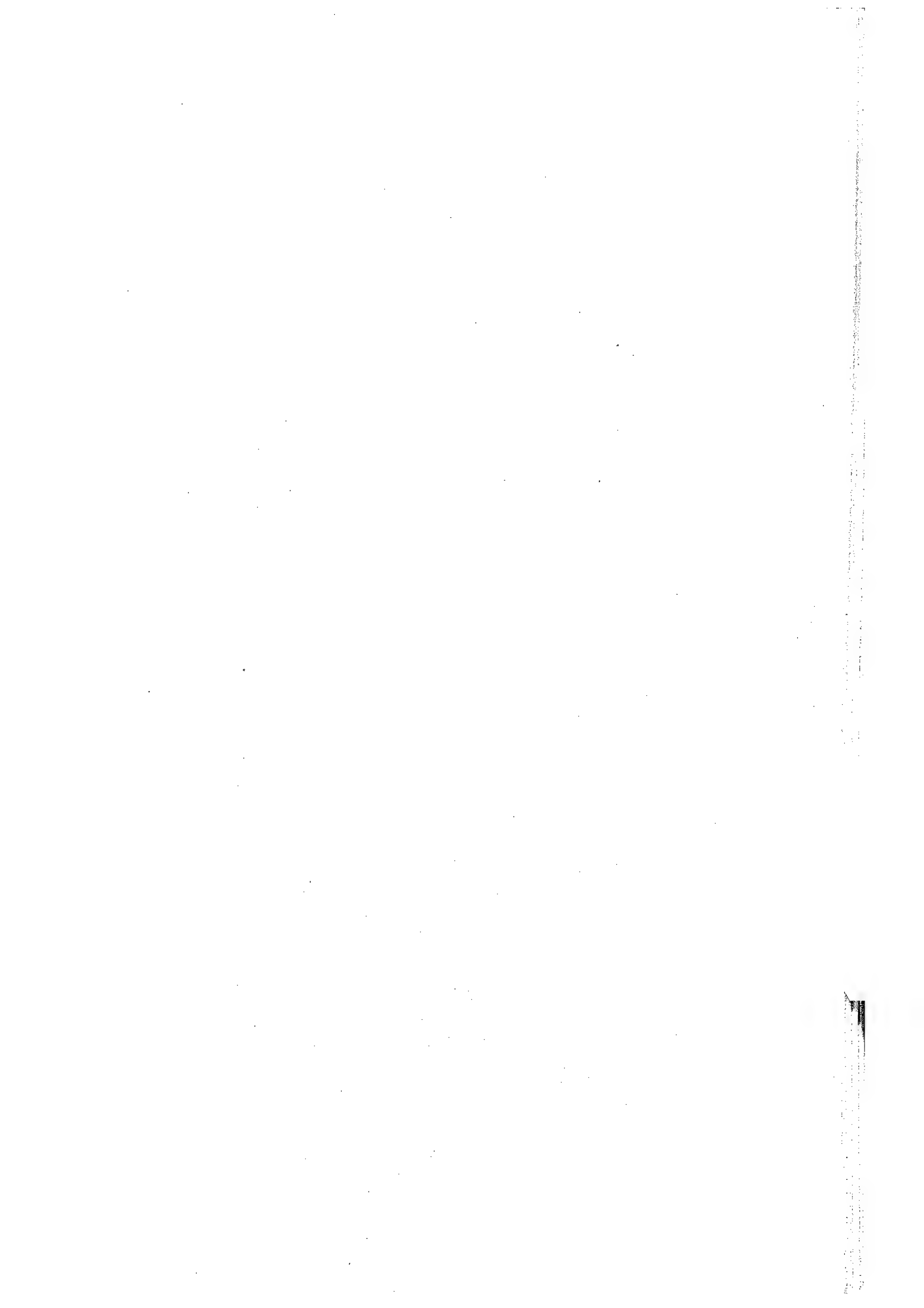
فاقتدْتُهُ إِلى الضِّفَّةِ المُعْشَبَةِ

وَجَّففْتُ جِسْمَهُ بِحَافَةِ إِزارِي الحريري

وَرَكَعْتُ عَلَى الأَرْضِ
وجَفَّفْتُ أَقْدَامَه بِشَعْرِي
وحِينَ رَفَعْتُ وَجْهِي ونَظَرْتُ في عَيْنَيْهِ
بَدَا لِي أَنِّي أُحِسُّ أَوَّل قُبْلَةٍ
في الكَوْنِ أُعْطِيت لأَوَّلِ امْرَأَةٍ.
مُبَارَكَةٌ أَنَا

ومُبَارَكٌ اللَّه الذِي خَلَقَني امَرأَةً
وسَمِعْتُهُ يَقُولُ لِي:
أَيّ إِلَه مَجْهُولٍ هِي أَنْتِ..
إن لَمْسَتَكِ هِي لَمْسَةُ الخَالِدِ
وفي عَيْنَيْكِ سِرُّ مُنْتَصِف اللَّيْلِ
لاَ.. لاَ يَا مُسْتَشَار المَلِكُ

عَبْرَ النَّهْر



4

تَقَبَّلْني

يَا إِلَهي

هَذهِ المَرَّةَ ، تَقَبَّلْني بِقَبُولِكَ

اجعَلْني أَنْسى هَذِه الأَيَامَ اليَتِيمَةَ

التي مَرَّت بِدُونِكَ .

وأَطِلْ فَقَط مِن عُمْرِ هَذِه اللَّحْظَةِ

في حِضْنِكَ .

وَاضِعاً إِيَّاهَا تَحْتَ نُورِكَ .

لَقَد جُبْتُ الآفَاقَ

متابعاً أَصْوَاتاً جَذَبَتِني دُون أَن تَقُودَني

إلى أيٍّ مَكَانِ

فاجْعَلْني الآنَ أَجْلِس فِي أَمْنٍ
مُصْغِياً إلى كَلِمَاتِكَ
فِي رُوحِ صَمْتي.
لاَ تُشِحْ بِوَجْهِكَ
عن أَسْرَارِ قَلْبِي الغَامِضَةِ
ولَكِن أحرِقْهَا حَتَّى تُضَاءَ بِنيرَانِكَ.

5

طَلائِعُ العَاصِفَةِ البَعِيدةِ
رَفَعَت خِيَامَها في غُيومِ السَّمَاءِ
والنُّورُ أخذ يَشْحُبُ.
والجَوُّ مُبَلَّلٌ بالدُّموعِ
في الظِّلالِ الصَّامِتَةِ بِالغَابَةِ.
إِن سَلاَم الحُزْنِ يُخَيِّم عَلَى قَلْبِي
كَما يُخَيِّمُ الصَّمْتُ الثَّقِيلُ عَلى العُودِ

قَبْلَ أَنَ يَشْرَعَ في بعث أنغامه.

إن كَوْنِي مَا يَزَالُ

في انتِظَارِ ذَلِك الأَلَم ِ الكَبِيرِ

الذي يُصَاحِبُ دُخُولَكَ

فِي حَياتِي

8

إِن المِصْبَاحَ الذي أَحْمِلُهُ بِيَدِي

يَزِيدُ مِن عَدَاوَةِ الظُّلْمَةِ في الطَّرِيق ِ المُمْتَدَّةِ أَمَامِي.

وحَافَّةُ الطَّرِيق هَذِه تَغْدُو رُعْباً

حَيْثُ يَبدُو حَتّى الشَجَرُ المُزهِرُ

كَأَنَّه شَبَحٌ يَتَوَعَّدُنِي بِالوَيْل ِ

وَوَقْعُ خُطُواتِي يَبْلُغُنِي في صَدَى

شَكٍّ خَفِيٍّ

ومِن أَجْل ِ ذَلك فَإِني أَدْعُو

أن يُضيءَ نُورُ الصَّبَاح
لِقَاءِ البَعِيدِ والقَرِيبِ، فِي قُبْلَةٍ
وأَنْ تَتوحَّدَ الحَيَاة والمَوْتُ
في حُبٍّ وَاحِدٍ.

(9)

حِينَ تُنْقِذُ خُطوَاتِي
فَإِنَّها تَغْدُو أَخَفَّ في زَحْفِهَا بأَكْوَانِكَ
وحِينَ تَغْسِلِ البُقَعَ مِن قَلْبِي
فَإِنَّه يُنيرِ ضَوْءَ شَمْسِكَ
فَكَوْنُ البُرْعُمِ لَمْ يُزْهِرْ بِجَمَالِه فِي حَيَاتِي
يَنْثُرُ حُزْناً في قَلْبَ الخَلْقِ.
وَحِينَ يُرْفَعُ غِشَاءُ الظُّلْمَةِ
عَنْ نَفْسِي

فإنها سَوْف تَحْمِلُ النَّغَمَ

لا بِتِسَامَتِكِ

(10)

لَقَد أَعْطَيْتَني حُبَّكَ

مُفْعِماً الكَوْن كُلَّهُ بِهِبَاتِكَ

وَقَد انهالَتْ كُلُّها فَوْقِي كَالمَطَرِ

فِي الوقْتِ الذِي لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُهَا

لأِن قَلْبِي كَانَ سَادراً في نَوْمِهِ

واللَّيْلُ حَوْلِي مُظْلِمٌ

وَرَغْمَ أَنّي ضَائِعٌ في كَهْف أَحْلاَمِي

فَقَد هَزَّتْني غِبْطَة فُجَائِيَّةٌ.

إذ أَعْرِفُ أَنَّه فِي مُقَابَلِ كُنُوزِ

كَوْنَكِ العَظِيم

سَتَقْبَلُ مِنّي

زُهَيْرَةَ حُبٍّ صَغِيرَةٍ

عِنْدَ الصَّبَاحِ

الذِي يَسْتَيْقِظُ فِيهِ قَلْبِي.

(17)

ارْفَعْ حَيَاتِي هَذِهِ مِن التَّرابِ

وضَعْهَا تَحْتَ بَصرِكَ

فَوْقَ رَاحَةِ يُمْنَاك

ارْفَعْهَا إلى الضَّوْءِ

وخَبِّئْهَا تَحْتَ ظِلِّ المَوْتِ

وَضَعْهَا مَع نُجُومِكَ

فِي سَلَّة اللَّيْلِ

وفِي الصَّبَاح دَعْهَا تُوجَد بَيْنَ الزُّهُورِ التي تَتَفَتَّحُ لِعِبَادَتِك

(18)

إِنِّي لأَعْلَمُ

أَن هَذِه الحَيَاةَ

التي تَفْتَقِرُ إلى النُّضج فِي صَمِيم الحُبّ
لَم تَضِعْ تَماماً
وأَعْلَمُ أَنَّ الزُّهُورَ التِي تَذْبُلُ عِنْدَ الفَجْرِ
والأَنهار التِي تَتِيهُ فِي الصَّحْرَاءِ
لَم تَضِعْ تَمَاماً
وأَعْلَمُ أَن أيَّ شيء يَتَخَلَّفُ
في هذه الحَيَاةِ المُثْقَلَةِ بِالبُطْءِ
لَمْ يَضِعْ تَماماً
وأَعْلَمُ أَنَّ أَحْلاَمِي التِي لَم تَتَحَقَّق بَعْدُ
وأَغانِيَّ التِي لَم تُعْزَفْ بَعْدُ
تَتَشَبَّثُ بِوَتَر من عُودِكَ
ولَم تَضِع تَمَاماً

20

النَّهَارُ غَائِمٌ مُمْطِرٌ

وبُرُوقٌ غَاضِبَةٌ

تَلْمَعُ عَبْرَ أَسْمَالِ السُّحُب .

والغَابَةُ مِثْل الأَسَدِ السَّجِينِ

في القَفْصِ

يهزّ عفرته في يأس

وفي مِثْلِ هَذا النَّهَارِ

الذي تَتَجَاذَبُهُ الرِّياحُ الخَافِقَة بأَجْنِحَتِها

دَعْني أَجِد الأَمْنَ في حُضُورِكَ

فالسَّمَاءُ المُتَوَجِّعَةُ

عَتَّمَت وِحْدَتِي

لِتُعَمِّقَ الشُّعُورَ بِلَمْسَتِكَ

حَوْلَ قَلْبِي

23

اقْتَرَبْتُ مِنْكَ

وعَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنِّي
جَرَحْتُكَ .
لَقد كُنْت أَمْتلِكُكَ كَسيِّدٍ لِي
حِين كُنْتُ أُقاوِمُكَ
لِكَي أَهْرب أَمَامَكَ .
وحِين كُنْتُ أَسْرِقُكَ
لَم أَكُنْ أَفْعَلُ ذَلِك إِلاّ مِنْ أَجْل
أَنْ أَجْعَل دَيْني
نَحْوَكَ أَكْثَر ثِقْلاً .
وفِي كِبْرِيَائي الجَامِحَةِ
كُنْتُ أُوَاجِهُ تَيَّارَكَ الجَارِفَ .
فَقَطْ
مِنْ أَجْلِ أَن أُحِسَّ بِكُلِّ القُوَّةِ في صَدْرِي .
وفي ثَوْرتِي
أَطْفَأْتُ أَضْوَاءَ بَيْتِي

فَفَاجَأَتْنِي سَمَاؤُكَ

بِنُجُومِهَا .

(25)

إِنِّي أُخْفِي نَفْسِي

هَرَباً مِنْكَ .

والآنَ وَقد أَلْقَيْتَ عَلَيَّ القَبْضَ

اضْرِبْنِي .

وانظُرْ إذا كُنْتُ سأَتَقَهْقَرُ .

أَخْتم هَذِهِ المُبَارَاةَ إلى الأَبد .

فإذا انتَصَرْتَ في النِّهَايَةِ

فَانزعْ مِنّي كلَّ مَا بِحَوْزَتِي .

لقد نَعِمْتُ بالضَّحَكَاتِ والأُغْنِيَاتِ

في أَكْوَاخٍ مُنْتشِرَةٍ طُول الطَّرِيقِ

وفي قُصُورٍ فَخْمَةٍ .

أَمَّا الآن وَقَد دَخَلْتَ حَيَاتِي

فَجَرِّبْ أَن تُبْكِيني

وانظُرْ إذَا كُنَت قَادِراً

عَلى تَمْزِيقِ قَلْبِي

26

حِين أَسْتَيْقِظُ في حُبِّكَ

فإِن سَلاَمَ لَيْلَتِي سَيَنْتَهِي .

وسَيْمتَحِنُ الفَجْرُ قَلْبِي

بميزانه النَّارِيّ .

وتَبْدَأُ رِحْلَتِي فِي مَدَار الأَلَمِ الظَّافِرِ

وأَجْرُؤُعَلَى جَنْيِ تَحَدِّي المَوْتِ

وأَحْمِلُ صَوْتَكَ

إلى قَلْبِ الاستِخْفَافِ والوَعِيدِ .

وسأُعَرِّي صَدْرِي

لِتَلَقِّي الإِهَانَاتِ التي يرْشقني بها
أبْناؤُكَ .
وسأُخاطِرُ بالوُقُوفِ إِلى جَانِبِكَ
في الوَقْت الذِي لاَ يَقِف فِيهِ
إلى جَانِبِكَ
سِوَايَ .

(29)

التَقَيْتُ بِكَ
حَيْثُ اللَّيْلُ يُلامِسُ
أَطْرَافَ النَّهارِ.
حَيْثُ النُّورُ يُضِيءُ ظُلْمَةَ الفَجْرِ.
والأَمْوَاجُ تَنْقُلُ قُبُلاَتِ الشَّاطِئ
إلى الشَّاطِئ الآخَرِ.
ومِن أَعْمَاق قَلْبِ الزُّرْقَةِ التي لاَ تُسْبَرُ

كَانَ يَتَعَالى هُتَافُ ذَهَبِيٌّ.
وعَبْرَ حِجَابٍ مِن الدُّمُوعِ
حَاوَلْتُ أَن أَرَى مُحَيَّاكَ
ولَسْتُ عَلَى يَقِينٍ بِأَن أَرَاكَ

30

إِذَا أُنْكِرَ عَلَيَّ الحُبُّ
فَلِمَاذَا يُوَزِّعُ الصُّبْحُ قَلْبَهُ في أغْنِيَاتٍ؟
ولِمَاذَا هَذِهِ التَنَهُّدَاتُ التي تُبَدِّدُهَا
رِيحُ الجَنُوبِ بَيْنَ الأَوْرَاقِ الطَرِيَّة؟
وإِذَا أُنْكِرَ عَلَيَّ الحُبُّ
فَلِماذَا يَحْمِلُ اللَّيْلُ فِي صَمْتٍ مُوجَعٍ
عَذَاب النُّجُومِ؟
ولِمَاذَا هَذا القَلْبُ المَخْبُولُ
يُلْقِي فِي طَيْشٍ

أَمَلَهُ

فَوْقَ بَحْرٍ لاَ يْعِرفُ له نهاية ؟

39

لَمْ يَأْتِ أَيُّ ضَيْفٍ إلى بَيْتي

مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ .

والأَبْوَابُ مُغْلَقَةٌ

والنَّوَافِذَ مَسْدُودَةٌ .

وكُنْتُ أُقَدِّر أن لَيْلِي سَيَكُونُ وَحِيداً مُوحِشاً

ولَكِنِّي مَا كِدْتُ أَفْتحُ عَيْني

حَتَّى وَجَدْتُ الظَّلاَمَ قَد تَبَدَّدَ .

فَنَهَضْتُ مُسْرِعاً

ورَأَيْتُ سَلاَسِلَ حَدِيقَتِي كُلَّهَا

قَد قُطِعَت .

وعَبْرَ البَاب المَفْتُوحِ

كَانَت رِيحُك وأَنْوَارُكَ تَرْفَع أَعْلاَمَها .

وحينَ كُنْتُ أَسِيراً في بَيْتي

والأَبْوابُ حَوْلِي مَسْدُودَةٌ

كَانَ قَلْبِي يُخَطِّطُ للهُرُوبِ والإِفْلاَتِ

أَمَّا الآنَ فَإِني أَجْلِسُ فِي صَمْتٍ

أَمَام بَوَّابَتِي المَكْسُورَةِ

وأَنْتَظِرُ وصوُلَكَ .

إِنَّك تَجْعَلُ مِنِّي أَسِيراً لِحُرِّيتَي نَفْسِهَا .

42

اجْعَلْنِي حُرّاً

فِي مِثْلِ حُرِّيَةِ طُيُورِ الغَابِ

والسَّالِكِين الدُّرُوبَ المَجْهَولَةَ .

اجْعَلْني حُرّاً .

كَمِثْلِ حُرِيَّة سُيُولِ المَطَرِ

والعَاصِفَةِ التي تَهُدُّ السُّدُودَ
وتَمْضِي نَحْوَ نِهَايَتِها المَجْهُولَةِ .
اجْعَلْني حُرّاً
فِي مِثْلِ حُرِّيَةِ نَارِ الغَابِ
ومِثْلِ الرَّعْدِ الذِي يَضْحَكُ مُدَوِّياً
ويُلْقِي فِي عُنْفٍ بِتَحَدِّيهِ للظَّلاَمِ .

47

أعِيشُ عَلَى الحَافَّةِ في ظِلِّ الطَرِيقِ
وأَرْقُب حَدَائِقَ الجِيرانِ
القَائِمَةِ في أقْصَى الطَّرِيق
وَهْي فَيَّاضَةٌ بِالبَهْجَةِ في ضَوْءِ الشَّمْسِ
وأُحِسُّ أَنَّني فَقِيرٌ
وأَنْتَقِلُ بِجُوعِي مِن بَابٍ إلى بَاب .
وكُلَّما زَادُوا مِن عَطَائِهِم

كُلَّما ازْدَادَ شُعُورِي بِوِعَائِي المُتَسَوِّلِ

حَتَى كَان صَبَاحٌ

استَيقَظْتُ فِيه مِن نَوْمِي فَجْأَةً

عَلى صَرِيرِ انفِتَاح البَابِ

ودَخَلْتَ أَنْتَ تَطْلُب مِنِّي الصَّدَقَة .

وفِي يَأْسٍ

حَطَّمْتُ غِطَاء خِزَانَتِي

وَاكتَشَفْتُ بَغْتَةً ثَرْوَتي الطَّائِلَة

(48)

لَقَدْ أَخَذْتَهُ بَيْن ذِرَاعَيْكَ

وتَوَّجْتَهُ بِتَاجِ المَوْتِ.

وهو الذي كان دَائِماً ينتظرُ مُنْزَوِياً

كَأَنَّه مُتَسَوِّلٌ أَمَامَ حَفْلِ الحَيَاةِ.

لَقَد وَضَعْتَ يَمِينَك في خَيْباتِهِ

وَقَبَّلْتَهُ بالسَّلْمِ التي تُهَدِّىء
ظَمأَ الحَيَاة الصَّاخِب
لَقَد جَعَلْتَهُ وَاحِداً مَعَ جَمِيعِ المُلُوك
ومَعَ عَالَم الحِكْمَةِ القَدِيم

52

جِئْتُ لِكَي أَظْفَرَ بَلَمْسَتِكَ
قَبْلَ أَن يَبْدَأَ يَوْمِي
فَلْتَدَعْ عَيْنَيْكَ تَسْتَرِيحَان قَلِيلاً
فَوْق عَيْنَيَّ .
ودَعْنِي أَحْمِلِ إِلى عَمَلِي
ضَمَانَ صَدَاقَتِكَ
وَأُنَعِّمَ قَلْبي بمُوسِيقَاكَ
حَتَّى أَقْدِرَ عَلَى تَحمُّلِ صَحْرَاءِ الضَّجِيجِ
دَع شَمْس حُبِّكَ

تُقَبِّلَ ذُرَى أَفْكَاري.

وَتَمَهَّل في وِدْيَانِ حَيَاتِي

حَيْثُ تَنْضجُ الغِلاَل

(54)

اِبْقَ أَمَامَ عَيْنَيّ

وَدَعْ نَظَرَاتِكَ تُلْهِب أُغْنِيَاتِي

ابْقَ بَيْنَ نُجُومِكَ

ودَعْنِي أُوقِد عِبَادَتي قُرْبَاناً لأَنوارِها

إن الأَرْضَ تَظَلُّ في الانتِظَارِ

عَلَى قَارِعَةِ طَرِيقِ الكَوْنِ

وَابْقَ واقَفاً فَوْق البِسَاطِ الأَخْضَرِ

الذِي فَرَشْتُهُ فِي طَرِيقَكَ

وَاجْعَلْنِي أُحِسَّ فِي زُهُورِ الحَقْلِ

امتِدَادَ تحِيَّتي

ابْقَ في مَسَائِي الوَحِيدِ

حَيْثُ يَسْهَرُ قَلْبِي وَحْدَهُ

وَامْلأْ كَأْسَ وِحْدَتِهِ

حَتَّى يَشْعُرَ في شَخْصِي

بِلاَ مَحْدُودِيَّةِ حُبِّك

55

دَعْ حُبَّكَ يَعْزِف صَوْتِي

ويَسْتَرِيحُ إِلى صَمْتِي .

دَعْهُ يَدْخُل ، عَبْرَ قَلْبِي

فِي كُلِّ حَرَكَاتِي .

وَاجْعَلْ حُبَّكَ يَتَأَلَق مِثْلَ نُجُوم

الظُّلْمَةِ في أَحلاَمِي

ودَعْهُ يَبْزُغ في يَقْظَتِي

وَاحْرِقْهُ في نِيران شَهَواتِي

وأن يَجْرِيَ في كُلِّ جَدَاولِ حُبِّي

دَعْني أَحْمِل حُبَّكَ إلى صَمِيمِ

حَيَاتي .

كَما يَحْمِلُ المِعْزَفُ أَلْحَانَهُ .

ودَعْني أُعِيدُهُ إِلَيْكَ

في الخِتَامِ

إلى جَانِب حَيَاتي

56

يا مَلِيكِي

إنَّك تَخْتبِىءُ في مَجْدِكَ نَفْسِهِ

إن ذَرَّةَ الرَّمْلِ ، وقَطْرَةَ المَطَرِ

أَكْثَرُ ظُهوراً مِنْكَ

وهَذا الكَوْنُ الوَقِحُ يَدَّعِي لِنَفْسِهِ

جَميعَ الأَشْياءِ التي تَخُصُّكَ

دُون أَنْ يَشْعُرَ لِذَلك بالخَجَلِ
وتَتْرُك لَهُ المَجَالَ
مُنْزَوِياً فِي صَمْتٍ.
ولِذا، فَإِنَّ الحُبَّ يُوقِدُ مِصْبَاحَهَ
للبَحْثِ عَنْكَ
ويَعْبُدُكَ بِلاَ إِكْرَاهٍ.

57

حِينَ عُدْتُ مِن الحَفْلَةِ إلى البَيْتِ
كَانَت رَوْعَةُ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ
قَد هَدَّأَت الرَّقْصَ فِي دَمِي.
وصَار قَلْبِي فَجْأَةً صَامِتاً
مِثْلَ مَسْرَح مَهْجُورٍ أُطْفِئَت فِيهِ الأَنْوَارُ
ولَكِنَّ فِكْرِي اجتَازَ الظُّلْمَةَ
وأَقَام بَيْنَ النُّجُومِ

ورَأى أنَّها كَانَتَ تَلْعَبُ
دُون خَوْفٍ
في السَّاحَةِ السَّاكِنة
مِنَ قَصْرِ
مَوْلانَا المَلِكِ.

(58)

بِأُغنِيَاتِهِ الصَّباحِيَةِ
كَان يَطْرُقُ بَابنَا
حَامِلاً إلَيْنَا تَحِيَّات الفَجْرِ
وبِرِفْقَتِه كُنَّا نَسوقُ القُطْعَان إلى المَرْعَى
ونَعْزفُ نَاينَا فِي الظِّلِّ
ونَفْقِدُه لِنَجِدَهُ مِن جَدِيدٍ
بَين حُشُودِ السُّوقِ .
وفي سَاعَةِ الاستِغْرَاقِ الكَامِل في العَمَلِ

كُنَّا نَعْثُر عَلَيْه صِدْفَةً

جَالساً فَوقَ العُشُب على قَارعَةِ الطَّرِيق ِ .

كُنَّا نَمْشِي حِينَ يَدُقّ طَبْلَه

ونَرْقُصُ حِينَ يُغَنِّي

ونُرَاهِنَ عَلى أَفْرَاحِنَا وآلامِنَا

حَتَّى نُنْهِي مَعَهُ مُبارَاتِه .

إِنَّهُ وَاقِفٌ إلى مِقْوَدِ زَوْرَقِنَا

وبِرِفْقَتِهِ كُنَّا نَتَمَايَلُ فَوْقَ الأَمْوَاج الخَطِيرَةِ

وبِرِفْقَتِهِ كُنَّا نُوقِدُ مِصْبَاحَنَا

ونَنْتَظِرُ الوَقْتَ الذي يَنْتَهِي فِيهِ النَّهَار.

59

في الصَّباح ِ

حِينَ تَدُقُّ النَّوَاقِيسُ في مَعْبَدِكَ

فإِنَّ الرِّجَالَ والنِّسَاءَ

يُهْرَعُونَ إِلَيْكَ

عَبْرَ طَرِيقِ الغَابِ

حَامِلِين هِبَاتِهم مِن الزُّهُورِ

ولَكِنِّي كُنْتُ اضْطَّجعُ فَوْقَ العُشْبِ

في الظِّلِّ

وأتركُهُم يَمُرُّون قُرْبِي

وكُنْت أَرى أَنَّه مِن الأَحْسَنِ أَنْ أَتكَاسَلَ

وأَتوانَى

لأَن زُهُورِي في ذَلِك الوَقْتِ مَا زَالَت

في بَراعِمِها

وفي نِهَايَةِ اليوم تَفَتَّحت زُهُورِي

وحِينئذٍ ذَهَبْتُ إلى صَلاَتِي المَسَائِيَّة

68

هُنَاكَ أَوْتَارٌ عَدِيدَةٌ في عُودِكَ

فَدَعْني أُضيفُ إليْهَا وَتَرِي .

وحِين تُدَوْزِنُ أنْغَامَكَ

يُحطِّمُ قَلْبي الصَّمْتُ

وتَتَحَوَّلُ حَيَاتِي إلى شَيءٍ وَاحِد

مع أُغْنِيَتِك .

وبَيْن نُجُومِكَ العَدِيدَةِ

دَعْنِي أَضَع مِصْبَاحي الضَّئِيلَ،

فَفِي رَقْصَةِ عِيدِ الأَنْوَارِ

سَيَخْفُقَ قَلْبِي

وتُصْبِحُ حَيَاتِي شَيْئاً وَاحِداً

مَع ابتِسَامَتِك

69

تِلْكَ غَايَتِي

أَن تَكُونَ أُغْنِيتَي بَسيطَةِ كَبُزُوغِ الصَّبَاحِ

ومِثْلَ النَّدَى الذِي يَتَسَاقَطُ مِن فَوْقِ الأَوْرَاق

بَسِيطَةً بَسَاطَةَ أَلْوَان الغُيُوم ،
وزَخَّات المَطَرِ أَثْنَاءِ اللَّيْل
وَلكِنَّ أَوْتَارَ عُودِي
لم تُشَدَّ وتُضْبَطْ إِلا مُنْذُ حِينٍ
وهي تُرْسِلُ أَنْغَامَهَا
مِثل الاسْهُم الحَادَّةِ
إِنَّها تَفْتَقِر إلى رُوحِ الرِّيحِ
وتَجْرَحُ ضَوءْ النَّهَار
وهَذه الفَقَراتُ من أُغنِيَاتِي
تُصَارِعُ بِقُوَّةٍ
لِكَي تَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا
مُوسِيقَاكَ .

(70)

لَقَدْ رَأَيْتُكَ تَعْزِفُ مُوسِيقَاكَ

فِي قَاعَةِ رَقْصِ الحَيَاة .

وفِي تَفَتّحُ الرَّبِيعِ المُبَاغِت

جَاءَت ابتِسَامَتُكَ لِتحَيَّتِي

وحِين اضطَجَعْتُ بينَ زُهُورِ الحَقْل

سَمِعْتُ هَمَسَاتِكَ تَسْرِي عَبْرَ الأَعْشَاب .

إِنَّ الطِّفْلَ حَمَل إلى بَيْتِي

رِسَالَةَ الأَمَل

والمَرأةُ حَمَلَت إليهِ مُوسِيقَى حُبِّك

والآنَ فَإنِّي أَتَرَقَّبُ

عِنْدَ ضِفَّة البَحْرِ

أَنْ أَسْمَعَكَ في المَوْت

فَأَعْثُرَ عَلَى تَرْنِيمَةِ

الحَيَاةِ

في أُغْنِيَةِ نُجُومِ اللَّيْل

71

أَذْكُرُ طُفُولَتي

عِنْدَمَا كَان الفَجْرُ

رَفِيقُ ألعَابِي

يَجْتَاحُ غُرْفَةَ نَوْمِي

بمُفَاجَآتِه الصَّبَاحِيَّةِ اليَوْمِيَّة

حِينَ كَانَ الإِيمَانُ بالمُذْهِلِ والرَّائِع

يَتَفَتَّحُ فِي قَلْبِي كُلَّ يَوْم

مِثْلَ الزُّهُورِ الطَرِيَّة

فَأُحَدِّقُ فِي وَجْهِ الكَوْنِ

بِغِبْطَةِ سَاذَجَةٍ

حِين كَانتَ الحَشَرَاتُ

والطُّيُورُ

والحَيَوانَاتُ

وأشْجَارُ القَصَبِ العَادِيَّةِ
والأَعْشَابُ
والغُيُومُ
تَحْفَظُ كُلُّها أَوْفى قِيَمِ المُذْهِلِ والمُثِير
حِينَ كَانَت ثَرْثَرَةُ أَمْطَارُ اللَّيْل
تَحْمِلُ إليَّ أَحْلاَمَ بَلَدِ الحُورِيَّات
وصَوْتُ أُمِّي عِند المَسَاء
يَمْنَحُ النُّجُومَ مَعْنَى
وحِينئذٍ ، أُفَكِّرُ في المَوْتِ
ورَفعْ الحِجَابِ
واليَوْمِ الجَدِيدِ
وحَياتِي المُنْبَعِثَةِ
في مُفَاجَأَةِ الحُبِّ المُنْعِشَة

(72)

أيُّها الكَوْنُ

حِينَ لاَ يُقبِّلُكَ قَلْبِي قُبْلَةَ العَاشِق

فَإن نُورَكَ يَفقِدُ رَوْعَةَ بريقِهِ الكَامِل

وسَمَاؤُكَ تَنْتَظِرُ بِمِصبَاحِهَا المُوقَد

في اللَّيْلِ الطَّوِيل

ويَقْتَرِبُ قَلْبِي مِنْكَ بِأَغَانِيه

ونَتَبَادَلُ الهَمَسَاتِ

ويَضَعُ إكْلِيلَه في عُنقِكَ

وأُدْرِكُ أَنَّهَ قد وَهَبَكَ شَيْئاً

سَيُكُونُ عَزِيزاً عَلَيْك

أَثِيراً إِلى نَفْسِك

مَعَ نُجُومِك

73

مِنَ اللَّحْظَةِ الأُولَى

تَخَلَّيْتَ لِي عَن مَكَانك مِن نَافِذَتِكَ

فَتَحَدَّثْتُ إلى عِبَادِك الصَّامِتِين
مِن أَبْنَاءِ الشَّارع الذِين يُهْرَعُون
حَامِلين هِبَاتِكَ
وغَنَّيْتُ مَعَ جَوْقَتِكَ السَّمَاوِيَّةِ
وَرَأَيْتُ البَحْرَ يَحْفَظُ في هُدُوئِهِ
صَمْتَه اللاَّمَحْدُود
كَمَا رَأَيْتُهُ يَهِيجُ فِي العَاصِفَة
لِيَكْشِفَ سِرَّهُ العَمِيق
وَلاَحَظْتُ الأَرْضَ في حَفْلِها السَّخِيِّ
بِشَبَابِها
وفِي السَّاعَاتِ البَطِيئَةِ لِلظِّلاَلِ الثَّقِيلَة.
والذِينَ تَوَجَهَّوُا للحُقُولِ
لِبَذْرِ البُذُورِ قد أَصْغَوا لِتَحِيَّتِي
والذين عَادُوا إلى البَيْتِ بمحاصِيلِهِم
والذين عَادُوا إِلَيها بِسِلاَلٍ فَارِغَةٍ

جَمِيعُهم قَد مَرُّوا قُرْبَ أَغْنِيَاتِي
وأَخيراً انْتَهى يَوْمِي .
واليَوَمَ عنْدَ المَسَاءِ
سَأغُنِّي أَغنِيَتِي الأَخِيرَة
لأَقُولَ لَكَ إِنِّي أَحْبَبْتُ كَوْنَك

74

لَقَد وَقَع عَلَيّ
وَاجِبُ أَنْ أَكُونَ مُنْشِدَكَ
وفِي أَغَانِيّ
أَعْطَيْتُ صَوْتاً لِزُهورِ رَبِيعِكَ
وأَعْطَيْتُ إِيقَاعاً لِحَفِيف أَشْجَارِكَ
وغَنَّيْتُ فِي سُكُونِ اللَّيْلِ
وفِي أَمْن الصَّبَاح .
وزَخَّاتِ المَطَر الصَّيْفِيَّة الأولَى

قَد امْتَزَجَت بِأَنْغَامي

وكَذَلِك تَمَوُّجُ مَحَاصِيلِ الخَرِيف

يَا إِلَهي

اجْعَلْ نَشِيدِي لاَ يَتَوَقَّفُ عِنْدَ النِّهَايَة

حِينَ تَشَقُّ قَلْبِي لِتَدْخُلَ بَيْتِي

وَاجْعَلْهُ يَتَفَجَّرُ في التَّرْحِيبِ بِك

(77)

أَيُّها العَابِرُ

إلى أَيْنَ أَنت ذَاهِبٌ؟

- إني ذَاهِب للسِّبَاحَةِ في البَّحْرِ عِنْدَ احمِرَارِ الفَجْرْ

وعَبْرَ الطَّرِيقِ الطَّوِيلَةِ المُشَجَّرَة

- أَيُّها العَابِرُ

- أَيْن يُوجَدُ هَذا البَحْرُ؟

حيث النَّهْرُ يَخْتم مجراهُ

حَيْث الفَجْرُ يَنْطَوِي في النَّهَارِ

وحَيْث النَّهَارُ يَغْرُبُ في الظُّلْمَة

ـ أيُّها العَابِرُ

كَمَ عَدَدُ رُفقَائِكَ الذِين يُصَاحبونَكَ؟

ـ لاَ أَعْرِفُ كَيف أَعُدُّهُم

إنَّهم يَرْحَلُون طوَال اللَّيْل

بِمَصَابِيحِهِم المُوقَدَة

ويُغَنُّون طوَال النَّهَار

عَبْر المَسَالِكِ المَائِيَّة والدُّروبِ البَرِّيَّة

ـ أيها العَابِرُ

هَل البَحْرُ بَعِيدٌ؟

مِقْدَارُ البُعْدِ هَذَا يَشْغَلُنَا جَمِيعاً

فَنَتَسَاءَلُ عَنْه نَحْنُ أيْضاً

إن هَدِيرَ المْوجِ المَدَوِّي يَرْتَفِعُ إلى عِنَانِ السَّمَاء

حِين نَكُفُّ عَن النَّشِيد، فَيَبْدُو لَنَا أَكْثَر قُرْبَا

ومَـــع ذَلك فهَوَ بَعِيدٌ

ـ أَيّها العَابِرُ

هل الشَّمْسُ مُحْرِقَةٌ

ـ أَجَلْ . إن رِحْلَتَنا طَوِيلَةٌ ومُرْهِقَةٌ

ويُغَنِّي فِيهَا ضَعِيفُ النَّفْسِ

كَمَا يُغَنِّي فِيها الحَيِيُّ الخَجُولُ

ـ أيها العَابرُ

مَاذَا يَحْدُثْ إذا دَاهَمَكُم اللَّيْلُ؟

نَضْطَجعُ لِنَنَام، حَتَّى يَنْبَلِجَ النَّهَارُ الجَدِيدُ

رَافِعاً صَوْتَه بِالنَّشِيد

ونِدَاءُ البَحْرِ يَتَعَالَى مُتدفِّقاً في الجَوّ صَدَاهُ

(78)

يَا رَفيقَ الطُّرِيق

إِلَيْكَ سَلاَمِي

سَلاَمَ العَابِرِ

آه يَا سَيِّدَ قَلْبِي المُمَزَّقِ بالفِقْدَانِ والوَدَاعِ

وبِصَمْتِ الغُروبِ الرَّمادِي

إِلَيْكَ سَلاَم البَيْتِ المُتَدَاعي

يا نُورَ اليَوْمِ الوَلِيد

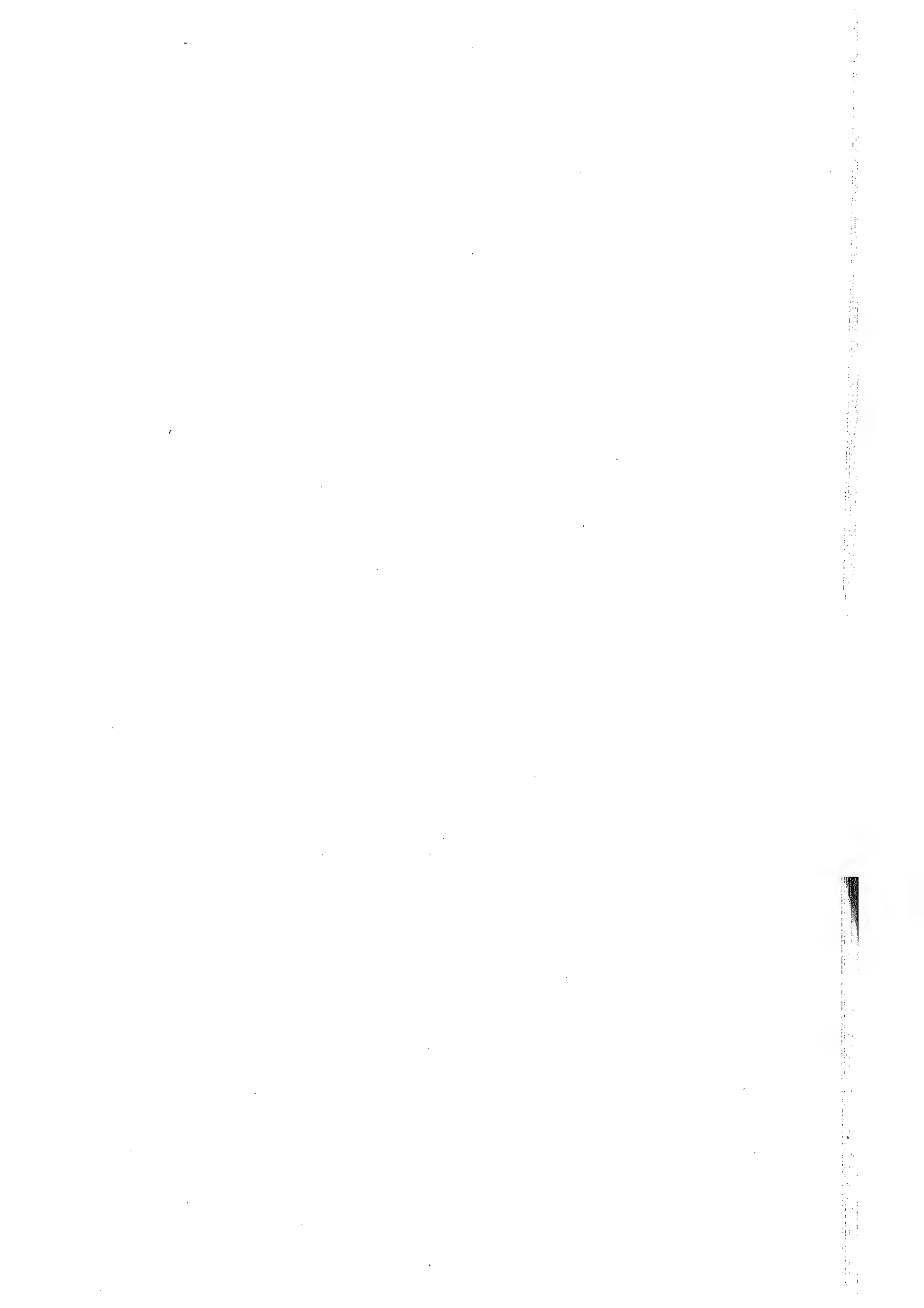
وشَمْسَ اليَوْمِ الدَّائِم إلى الأبَد

إِلَيْكَ سَلاَم الأَمَلِ الذِي لاَ يَمُوت

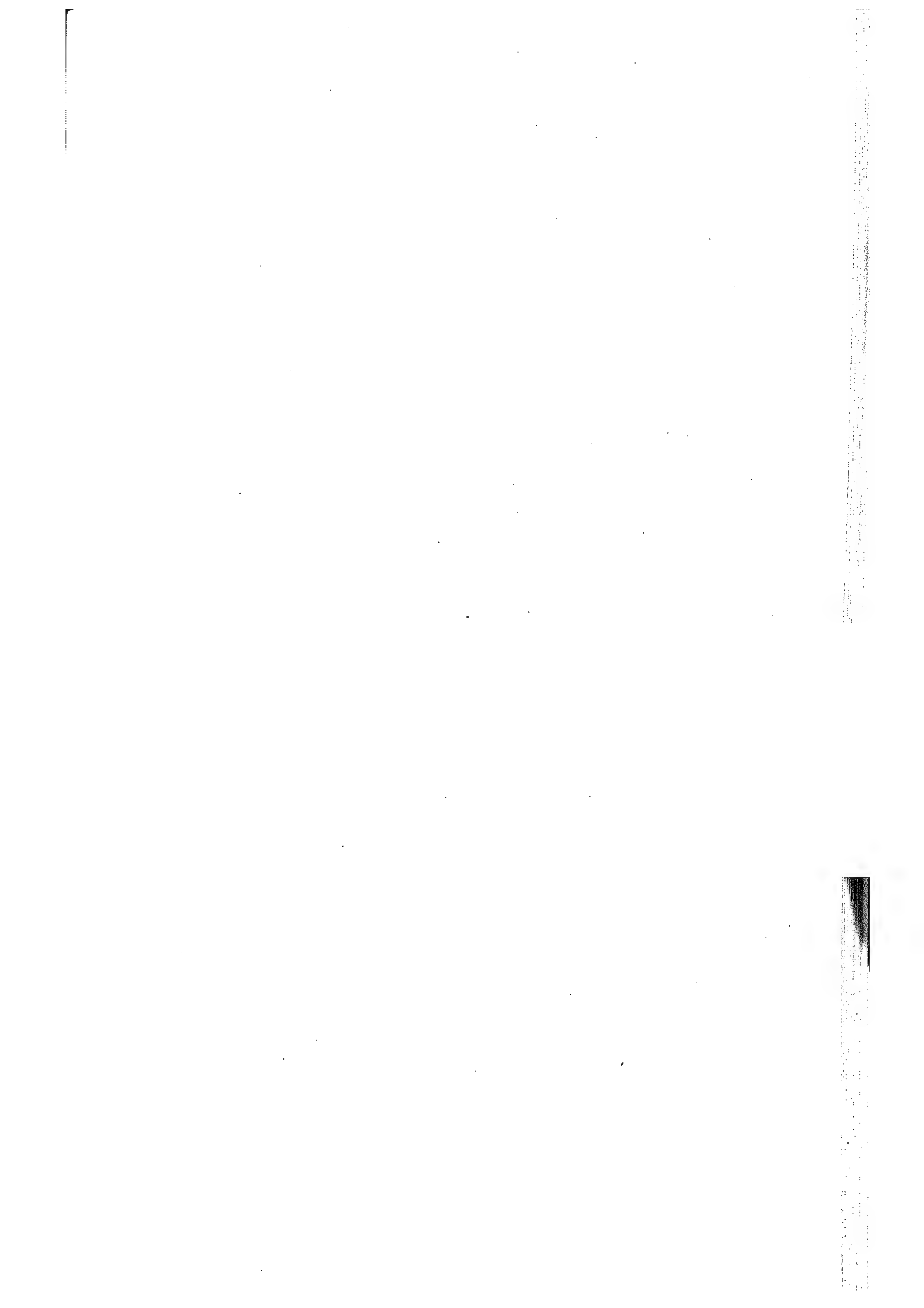
يَا مُرْشِدِي

أَنَا العَابِرُ فِي طَرِيقٍ لاَ نِهَايَة لَها

إِلَيْك سَلام العَابِر



الهارِبة



3

كَانَت الدُّنيا قد أَخَذَت في الظَّلام

حين سَأَلْتُها

إلى أَيِّ أَرْض وَصَلْت؟

فَاكتَفَت بِخَفْض بَصَرِها

وأَخَذ المَاءُ يُقَرقِرُ عِند عُنُق جَرَّتِهَا

حِينَ تَأَهَّبَتُ للذَّهَاب .

الأَشْجَار تَمِيلُ على الضِفَّةِ في سِحْرٍ جَذَّاب

والأَرْضَ تَبْدُو كَأَنَّها تَنْتَمِي إِلى المَاضي

والمِيَاهُ سَاكِنَةٌ ، واشْجَارُ البَامْبُو

وَاقِفَةٌ بِلاَ حَرَكَةٍ ، مَلْفُوفَةٌ في غُموضِها ،

وسِوَارٌ يَرِنّ عِند مُلامَسَة الجَرَّة

هُنَاكَ . . عَلى الدَّرب

لاَ تُجَدِّفْ وَشُدَّ الزَّوْرَقَ إلى هَذِهِ الشَّجَرة

لأِنِّي أعْشَقُ مَنْظَر هَذَا البَلَد

إن نَجْمَةَ المَساءِ تَهْبِطُ

وَراء قُبَّةِ المَعْبَد

وشُحُوبُ المَرْمَرِ في المَرْسَى

يَبْدُو كَأَنَّهُ شَبَحٌ فَوْقَ المَاءِ الغَامِقِ المُعتم

وعَابِرُون مُتَخَلِّفُون يَتَنَهَّدُون

لأَن أَضْوَاءَ النَّوافِذِ الخَفِيَّةِ

قَد تَشَتَّتت في ظلاَمِ التَّشَابُكِ

بَيْنَ الأَشْجَار والجَنَبَات العُشْبِيَّةِ

عَلى طُولِ الطَّرِيق .

ومَا زَال ذَلِك السَّوَارُ الصَّغِيرُ يَرِنُّ

في اصطِدَامِه بالجَرَّةِ

وحِينَ يَتَبَاعَدُ، فَإِن الخُطُوَاتِ

تُحْدِثُ خَشْخَشَةً هُنَاكَ في الدَّرْبِ
المُغَطَّى بِالأَوْرَاقِ الجَافَّةِ
واللَّيْلُ يَزْدَادُ ظُلْمَةً
وأَبْراجُ القَصَبِ تقِفُ صفّاً وَاحِداً كَالأشْبَاحِ
وتَنْبَعِثُ مِن المَدِينَةَ غَمْغَمَةٌ مُتْعَبَة
لاَ تُجَدِّفْ ، وشُدَّ الزَّوْرَقَ إِلى أي شَجَرَةٍ
وَدَعْنِي أَبْحَثُ عَن رَاحَتِي
في هَذا البَلَدِ الغَرِيبِ الذي يَمْتَدُّ في الظَّلاَم
تَحْت النُّجُوم وحَيْثُ الظُّلْمَةَ تردِّد صدَى
رَنِين سِوَارٍ صَغِيرٍ يَصْطَدِمُ
بالجَرَّة

4

آه ، لَوْ مُنِحْتُ سِرّاً
مِثْل سِرِّ المَطَر الذي تُمْسِكُه الغُيُومُ

سِرّاً، مَلْفُوفاً في الصَّمْتِ
يُمْكِنُني أَن أَجُوبَ بِه الأماكِنَ النَائِيَّة
آه لَو كَان لِي أَحَدٌ أَهْمِسُ إِلَيْهِ
حَيْثُ المِيَاهُ البَطِيئَةُ تَتَرَقْرَقُ
تحت الأَشْجَارِ الغَافِيَةِ في ضوء الشمس.
هَذا المَساءُ يَبْدُو أَنَّ السِرَّ يَنْتَظِرُ
ضَجِيجَ خُطْوَةٍ، ويَسْأَلُني عَن سِرِّ دُمُوعِي.
لاَ أَسْتَطِيعُ أَن أُقَدِّمَ تَبْرِيراً لِبُكَائِي
فَذَلِكَ مَا يَزَالُ حَتَّى الآن سِرّاً
مُحَجَّباً عَنِّي.

(7)

أَنَا كَاللَّيْلِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ
أَيُّها الزَّهْرُ الصَّغِيرُ
يُمْكِنُني أَن أُقَدِّم إِلَيْكَ فَقط الأَمْنَ والسَّلاَم

وصَمْتاً سَاهِراً مُختَبِئاً في الظُّلْمَة

وحِين تَفْتَح أَكْمَامَك في الصَّباحِ

فَإنّي أَتْرُكُكَ لِعَالَمَ ملِيء بِطَنِينِ

النَّحْلِ وأَغانِي الطُّيُور.

إن هَدِيَّتي الأَخِيرةَ إِلَيْكَ

سَتَكُونُ دَمْعَةً تُسْكَبُ في ذرْوَةَ شَبَابَكَ

سَتَجْعَل ابتِسَامَتَكَ أَحلْى

وتَحْجُبُ بَصَرَكَ عَن بَهْجَةِ اليَوْمِ الكَرِيهَة.

9

لو عِشْتُ في مَدِينَةِ وِيجَان المَلَكِيَّة

حِين كَان كَاليدَاس شَاعِر الملك

لكُنْتُ سَأَتَعَرَّفُ عَلَى صَبِيَّةٍ من (مَلْوَى)

وَلَمَلأَت أَفْكَارِي بِصَدَى اسمِهَا

وَلأَلْقَت عَلَيَّ نَظْرَةً عَبْرَ الظِلاَلِ

مِن أَجْفَانِها، وتَرَكَت إِزَارَها

لِيَشْتَبِكَ في اليَاسَمِين كَمُبُرِّرٍ لِلبَقَاءِ

بِجِوارِي

كُل هَذا كَانَ يَقَعُ في مَاضٍ

ضَاعَتَ أَثَارُه تَحْت أَوْراقِ الزَّمَنِ المَيِّتَه

واليَوْمَ يَبْحَثُ الدَّارسُونَ عَن وَقَائِعَ

تُمَارِسُ مَعَهم لُعْبَةَ الاستِخْفَاء .

فَلَن أُمَزِّقَ قَلْبِي في الحُلْمِ بِأَزْمَانٍ

غَابِرَةٍ خَالِيَةٍ

ولَكِن أَوَّاه

إِنّي أَسْأَلُ

إِلى أي سَمَاءٍ

حَمَلْنَ فِي سِلاَل الزُّهُورِ

تِلْكَ الأَيَّامَ التِي أَثَارت القَصائِدِ الغِنَائِيَّة

لِشَاعِر المَلِك؟

هَذا الصَّباحَ

إِن فِرَاق مَنْ وُلِدْتَ بَيْنَهم مُتَأَخِّراً جدّاً

يُحْزِنُ قَلْبِي ويُضَايقُهُ

وَمَع ذَلِكَ فَإِن شَهْرَ ابريل يَحْمِلُ الزُّهُور نفسها

التِي كُنَّ يُزَيِّنَّ بِها شُعُورَهَنَّ

والنَّسيمُ الذي يُموِّجُ أثوابَهُنَّ

هو النَّسيم نفسه الذِي يَهْمِسُ للوُرود .

وفي الحَقِّ

إنَ هذا الرَّبيع لاَ يَفْتَقِرُ إِلى الفَرَح

وإنْ كان (كَالِيدَاس) لَمَ يَعُدْ يُغَنِّي

وإِني أَعْرِفُ أَنّه لَو كَانَ فِي وِسْعِهِ

أَن يَرْقُبَنِي مِن فِرْدَوْس الشُّعَرَاءِ

لَوَجَد المُبَرِّرَ لأِنْ يَحْسُدَني حَظِّي .

10

لاَ تَنْشَغِلْ بِقَلْبِهَا

يَا قَلْبِي

دَعْهُ في الظُّلْمَةِ

أَيُّ أَهَمِيَّة إِذَا كَان جَمَالُها جَمَالاً جَسَدِياً فحسب

وابتِسَامَتُهَا ابتِسَامَةٌ خَارِجِيَّةٌ مُرْتَسِمَةٌ

عَلَى مُحَيَّاهَا؟

دَعْنِي آخذ، مِنَ غَيْرِ مُعْضِلاَتٍ

المَعْنَى البَسِيطَ لِنَظَرَاتِهَا

وأُسْعَدُ بِذَلِك

لاَ يَهُمُّنِي أَنَ تَكُون شَبَكَةً من الأَوْهَامِ

تِلك التي تُطَوِّقُني بِهَا ذِرَاعَاها

ذَلِك أن الشَّبَكَةَ ذَاتَها ثَمِينَةٌ ونَادِرَةٌ

أَمَّا الخِدَاعُ فَيُمْكِنُ أَن نَضْحَكَ مِنْه ثُمَّ نَنْسَاهُ

لاَ تَنْشَغِل بِقَلْبِها ، يَا قَلْبِي
ولتَطْمَئِنَّ فَقَط إلى أن المُوسيقى حَقِيقَيَّةٌ
وإنْ وَجَبَ عَدَمُ الإِيمَانُ بِالكَلِمَاتِ .

واستَمْتِعْ بِالنِّعْمَةِ الرَّاقِصَةِ
فَوْقَ تَمَوُّجِ السَّطْحِ الخَدَّاعِ
مَهمَا كَانت الأَشْيَاءُ التِي تُوجَدُ تَحْتَهُ

(12)

مِثْلَ الجَدْوَلِ المُتَدَفِّق المُلْتوي
تَضْحَكِينَ وتُغَنِّينَ

وقَدَمَاك يُغَنِّيانِ حِين تَتَخَطَّرِين
ومِثْلَ ضِيفَّةٍ وعَرْوٍ وصَخْرِيَّةٍ
أَقِفُ أَنَا سَاكِناً سَاكِتاً
أَرْقُبُك فِي الظَّلامِ
ومِثْلَ عَاصِفَةٍ هَوْجَاءَ عَظِيمَةٍ

أهْرَع فَجْأَةً

مُحَاولاً شَقَّ حَيَاتِي

وتَبْدِيدَها شَظَايَا

في دَوَّامَة العِشْق

ومِثْلَ البَرْقِ الخَاطِفِ، رقيق وقاطع

سأشُقُّ قَلْبَ الظَلامِ المضطرِب

لِكَي تَغيبي في سِلْسَلَةٍ من الضَّحَكَات . .

14

إِنِّي سَعِيدٌ بِأَنَّكِ لَم تَعُودِي تَنْتَظِرينَنِي

بِتلْك النَّظْرَةِ المتَأَثِّرةِ المِلْحَاح .

إن رَوْعَةَ اللَّيْلِ

وَكلِمَاتِي التَّوْدِيعِيَّة

المُنْدَهِشَة بِإِيقَاعِها اليَائِس

هِي التِي تَسْكُبُ بَعْضَ الدُّمُوعِ من عَيْنِي

ولَكِنَّ النَّهَارَ سَوف يَظْهَرُ

وَسَتجِفُّ عَيْنَايَ وَقَلْبي

ولَن يَكُونَ هناك وَقْتٌ لِمَزيدٍ من البُكَاء

مَن الذي يقولُ إنَّه من العَسِيرِ أن نَنْسَى؟

إن رحمَةَ المَوتِ تَحْفُرُ في قَلْبِ الحَيَاةِ

مانِحةً إيَّاه هُدْنَةً

مِن رَغْبَتِهِ المَجْنُونَةِ في البَقَاء .

والبَحْرُ العَاصِفُ سَوف يَهْدَأُ في النِّهايَةِ

في مَهْدِهِ المُتَأَرْجِح .

ونارُ الغَابَةِ سَتَغْفُو في سَرِيرِ رَمَادِها نَفْسِهِ

وَعَلَيْنَا أَن نَفْتَرِقَ

أَنَا وأَنْتِ

إن الفُرْقَةَ ستكون متخفِّيةً تَحْتَ العُشْبِ النَّاضِرِ

والزُّهورِ التي تَضْحَكُ في ضَوْءِ الشَّمْس .

16

نَسِيتُ بُرْهَةً ، وجِئْتُ

ولَكِن ارْفَعِي عَيْنَيْكِ

ودَعِيني أَنْظر إذا كَانَت مَا زَالَت تَتَمَهَّلُ

فِيهما ظِلاَلُ الأَيَّام الخَالِية

مِثْلَ الغَيْمَةِ الشَّاحِبَةِ ، السَّابِحةِ

في الأُفُقِ ، بَعْدَ أَن سُرِقَت مِنها أَمْطَارُها

فَلتَصْبِري عَليَّ قَليلاً

إِذَا كُنْتُ أَنْسَى نَفْسِي

فَالوُرُودَ مَا تَزالُ في بَراعِمِها

ولاَ تَدْرِي أَنَّنا أَهْمَلْنَا قطف الزُّهُور

في ذَلِكَ الصَّيْف .

ونَجْمَةُ الصَّبَاحِ

لَهَا نَفْسُ الصَّمْتِ الخافِق

والأَنوار الأولى قد وقَعت في شِباكَ الغُصُون

وهيَ تَحُفُّ بنافِذَتِك كَمَا كانتْ تَفْعَلُ

في الأَيَّامِ الخَالِيَةِ

ولِبُرْهَةٍ، نَسِيتُ أَن الأَزْمَان قَدَ تَغَيَّرَتْ

وَجِئْتُ

نَسِيتُ إِذَا كُنْتِ قَد أَخجَلْتني

بِنَزْعِ نَظَراتِكِ عَنِّي حِين كُنْتُ

أَكْشِفُ لَكِ أَسْرَارَ قَلْبِي

أَذْكُر فَقَط الكَلِمَاتِ التي تَعَثَّرَت

فَوْق ارتِجَافِ شَفَتَيْكِ

وَذَكَرْتُ في عَيْنَيْكِ السَّمَراوِيْن

ظِلاَلاً عَابِرَةً من الهَوَى

مثلِ جَنَاحَيْ طَائِرٍ يَبْحَثُ عَن وَكْرِهِ

عِنْد الظَّلاَمِ

لَقد نَسِيتُ أَنَّكِ نَسِيتِ

فَجئْتُ

(17)

كَانَ المَطَرُ يَهْطِلُ بِغَزارَة

والنَّهْرُ يَتَدَفَّق هَادِراً

وَلَعَقَ الجَزِيرَة ثُمَّ ابتَلَعَهَا

بَيْنَمَا كُنْتُ انتَظِرُ وَحِيداً، بِسَنابِلِ قَمْحي

عِند الضِفَّةِ التي أَخَذَت في الانخِفَاض.

ومِنْ ظِلالِ الضِفَّةَ الأُخْرَى

كَان يَبْدُو زَوْرَقٌ يُعْبرُ النَّهر

وفَوْقَهُ امرَأة عِنْدَ المِقْوَد

فَصَرَخْتُ فِيهَا

تَعَالَي إلى جَزِيرَتي.

لَقد أَحَاطَت بِها المِيَاهُ الجَائِعَةُ

وخُذِي حَصَادِي
فَجَاءَت إِليَّ، وأَخذَتْ كُلَّ مَا أَمْلِكُ
حَتى آخرَ حبَّةٍ من حبَّاتِ قَمْحِي
فَسَأَلتُهَا أَن تَأْخُذَنِي أَنا أَيْضاً
ولَكِنَّها قالَت. . لا
كَانَ الزَّوْرَقُ مَشْحُوناً بِهَدِيَّتِي
ولَمَ يكُن فِيهِ مَكَانٌ لِي

7

أُورَفاشِي
لَسْتِ أُمَّاً، ولاَ ابنَةً، ولاَ زَوْجَةً
وَلكِنَّك امرأَةٌ خُلِقتْ لِكَي تَسْلُبَ
رُوحَ الفِردوس .
عِنْدَمَا يَهْبِطُ المَسَاءُ مُتْعَبا
ويُخَيِّمُ فَوْقَ حَظَائِرِ القُطْعَان العَائِدَةِ من المَرْعَى

لاَ تُطْفِئِين أَنْوارَ بَيْتِكِ

ولاَ تتَّجِهين إِلى فِرَاش الزَّوْجِيَة

بِقَلْبِ خَافِقٍ وابتِسَامَةٍ مُتَمَوَّجَةٍ

عَلَى شَفَتَيْكِ

سَعِيدَةٌ بِأَن سَاعَاتِ اللَّيْلِ

أَمينَةٌ جَدّاً عَلَى الأَسْرَارِ.

أَنت كَالفَجْرِ بِلاَ أَجْنِحَةٍ

يا أورفَاشِي، وبِلاَ خَجَلٍ.

من الذي يُمْكِنُه أَنْ يَتَصَوَّرَ

تِلك الرَّوْعَةَ الرَّهيبةَ التي صِيغَ مِنْهَا

جَمَالُكِ؟

لَقَد طَلَعْتِ من البَحْرِ المُزْبِدِ

فِي أَوَّلِ أَيَّام الرَّبِيع

وكَأْسُ الحَيَاةِ في يَمِينِكِ

وكَأْسُ السُّمِّ في يَسَارَكِ

والشَّبَحُ البَحْرِيّ
المُرَوَّض كالثُّعَبَان المُنْدَهِش
وَضَعَ عِند قَدَمَيْكِ
آلافَ رُؤُوسِهِ
وانبَعَثَ بَرِيقُك الطَّاهِر
من رَغْوَة البَحْرِ
أَبيْضَ صَافِياً عَارِياً كَأَنَّه اليَاسَمِين
أَكُنْتِ في يَوْمٍ من الأَيَّامِ
صَغِيرَة خَجْلَي أَمْ دَاخِل بُرعُمٍ
يا أُورفَاشي أَيّتُها الشّبابُ الخَالِدُ؟
هَل نِمْتِ لَيْلاً
مُهَدْهَدَة في أَعْمَاق اللَّيْلِ اللاَّزَوَرْدِي
حَيْثُ أَنْوَار الجَواهِر العَجِيبَةِ
تَعْبَثُ بالمَرْجَان، حَيْث أَصْدَافُ
الحَلاَزِين والمَخْلُوقَاتُ المُتَحَرِّكَةِ

لَها شَكْلُ الحُلُم ، حَتَّى جَاء النَّهَارُ
فَكَشَفَ عَنَ رَوْعَتِكِ؟
أَنْتِ مَعْبُودَة الرِّجَالِ
في كُلِّ العُهُودِ والعُصُورِ
أورفاشي أيتُهَا المُعْجِزَةُ
التي لاَ حَدَّ لَهَا .
يَخْفُقُ الكَوْنُ بِأَلَمِ شَبَابِيَ
لِنَظْرَتِكِ .
والنَّاسِكُ يَضَعُ أَمَامَ قَدَمَيْكِ
ثَمرَة نَدَمِهِ
وأَغاني الشُّعَرَاءِ
تَطِنّ وَتَتَجَّمع حوْل عِطْرِ حُضُورِكِ
وقَدَمَاك الرَّاقِصَتَان
في مَرَحٍ عَابِثٍ، تجرحان حَتَّى قَلْبَ
الريح الغَامِضَة بِرَنِينِ خَلاخِيلِكِ

المُذَهَّبَةِ .
حِينَ تَرْقُصِين أَمَامَ الآلِهَة
تَرْسُمِين أَفْلاَكاً مِن الإِيقَاعِ الجديد
في الفَضَاء الكَوْنِي
وتَرْتَجِفُ الأَرْضُ
يا أورفاشي
والأوراق والعُشْبُ
والحُقُولُ الخَرِيفيَّةُ
تَنْتَفِخُ وتَتَمَوَّجُ
والبَحْرُ يتضخَّمُ في فَوْرةٍ من الأمْوَاجِ
والنُّجُومُ تَتَسَاقَطُ في السَّمَاءِ
كالعِقد الذِي يَشبُ حَتّى يَنْفرِطَ فَوْقَ نَهْدِكِ
والدّمُ يَرْقُص في القُلُوبِ
في ارتِبَاكٍ مُفَاجِىء
أَنْتِ اليَقْظَةُ الأُولَى

فِي ذِرْوَةِ غَفْوةِ السَّمَاءِ

أورفاشي

دَعِي الجَوَّ يَرْتَجِفُ من هَيَجَانِه

والكَوْنَ يَغْسِلُ جَسَدَك بِدُمُوعِهِ .

إن قَدَمَيْكِ حَمْرَاوَان

بِلَونِ دَمِ قَلْبِكِ

وَبِرَشاقَةٍ تَتَمَايَلِين فَوْقَ زَهْرَةِ لوتس

زَهْرَة الشَّهْوَة التي تُثِيرُها الأَمْوَاج .

أورفاشي

أَنْتِ تَلْعَبِين أَبَدِيّاً

في تلك الذَّاكرة التي لاَ حَدَّ لَهَا

حَيْثُ يَتَحَرَّكُ ويَضْطَرِبُ حُلْمُ اللَّهِ .

(1)

يَا سَيِّدَةَ الرَّوْعَةِ المُتَعَدِّدَةِ ،

أَنْتِ مُتَنَوِّعَةٌ بِلا حُدُودٍ
في هذا الكَوْنِ الفَيَّاض .
طَرِيْقُكِ مَزْرُوعَةٌ بالنُّورِ
وملاَطَفَتُكَ تَتَحَوَّلُ إلى زُهورٍ
وثَوْبُكِ المَجْرُوُر يَكْسَحُ
دَوَّامة الرَّقْصِ بَيْن النُّجُومِ
وانغَامُكِ المُتَعَدِّدةُ الطَّبَقَات
تُرَدِّدُ صَداها الكَلِمَاتُ العَدِيدةُ
عَبْر إشَارَاتٍ ،وأَلْوَان .
أَنْتَ وَحِيدَةٌ وَوَاحِدَة في الصَّمْتِ
الذِّي لَمْ يُسْبَرْ غَوْرُه في النَّفْسِ
سَيِّدةُ الصَّمْتِ وسَيِّدة الوَحْدَة
رُؤْيَا مُرْتَعِشَةٌ من النُّور
وزَهْرَةُ لُوتَس وَحِيدَةٌ مُنَوَّرَةٌ
فَوْق عُودِ الحُبِّ

إنِّي لأذْكُر هذا اليَوْم.

هُطُولُ المَطَرِ العَنِيفِ

لاَ يَكَادُ يَهْدَأُ من حِين إلى آخر

حتَّى يَتَجَدَّدَ هُبُوبُ الرِّيحِ

فَيُوقِظَها عِنْد أَوَّلِ وَقْفَة.

وأُمْسِكَ بِمِعْزَفِي

وأَلْمَس أَوْتَارَه في كَسَل

إلى أن أجِدَ ـ المُوسِيقَى

قَد قَلَّدَت الإيقاع المَجْنُونَ

لِتلْك العَاصِفَةِ

دُون أن أَفْطَن إلى ذَلِك

وأرَى شَخْصَكِ يَتَخَلَّى في عَجَلَةٍ

عن العَمَلِ

ويَقِفُ عند بَابِي

ثم ينسَحِبُ بِخُطُواتٍ مُتَرَدِّدَة

ثم يعودُ من جَدِيد.

ثُمَّ يَظَلُّ خَارِجَ البَابِ مَسْتنِداً إلى الجِدارِ

ثُم يَدْخُلُ بِهُدوءٍ إلى الغُرْفَةِ ويَجْلِسُ

وَبِرَأْسٍ خَافِضٍ يَنْكَبُّ في صَمْتٍ

عَلَى شُغْلِ الإِبْرَة.

ثُمَّ يَتَوَقَّفُ فَوْراً عن العَمَلِ

ويَتَأَمَّلُ خَارِجَ النَافِذَةِ

خِلاَل المَطَرِ، صفّاً حَائِراً

من الأَشْجَارِ

هَذا هُو كُلُّ ما في الأَمْرِ.

سَاعةٌ مِن الظَّهيرَة المُمْطِرَةِ

المُفْعَمَة بِالظِّلاَل والغِنَاء والصَّمْت.

4

حِينَ رَكِبَتْ العَرَبَةَ

التَفَتَتْ إليَّ

وَتَرَكَتْ لِي نَظْرَةَ وَدَاع سَرِيعَة

كَانت تِلك آخرَ هَـدَايَاهَا إليَّ

ولَكِن أيْنَ يُمْكِنُني حِفْظُهَا

أَيُطْفِىء المَسَاءُ ومِيضَ اللَّوْعَةِ هَذِه،

كَما تُطْفَأُ آخرُ وَمْضَةٍ في نَار الغُروبِ؟

هَل تَغْسِلُها الأَمَطَارُ كما تَغْسِيل

اللاَّقُوحَ المَحْفُوظَ كَالكَنْزِ لدَى الزُّهُورِ

المُمَزَّقَةِ القَلْبِ؟

دَعْ للمَوْت أَمْجَادَ المُلُوك وثَرَوَات

الأَغْنِيَاء.

ألا يُمْكِن للدُّمُوعِ أَن تَحْتَفِظَ بِطَرَاوَةِ

الذِّكْرَى لِنَظْرَةٍ يُلْقِيها العَاشِقُ

في لَحْظَةِ حُبّ؟

يَقُولُ غِنَائِي:

أعطِنِيها ولَسَوْفَ أَحْفَظُهَا
لَنْ تَشْغَلَني أَمْجَادُ المُلُوكِ
ولاَ ثَرواتُ الغَنِيِّ
ولَكِنْ هَذِهُ الأَشْيَاءُ الصَّغِيرَة
هي مُلْكِي إِلى الأَبَدِ

6

كَانَ عَلَيَّ أَنْ أُسَافِرَ
ولَكِنَّكِ كُنْتِ سَاكِتَةً
غَيْرَ أَنِّي أَحْسَسْتُ
مِن رجْفَة بَسِيطَة
أَن ذِرَاعَيْكِ الحَنُونَتَيْن
تَهُمَّان بِقَوْلِ (لاَ . . لَم يَحِن الوَقْتُ بَعْدُ)
لَقَد أَصْغَيْتُ كَثِيراً إِلى يَدَيْكِ
يَتَحَدَّثَانِ إِليَّ في تَوَسُّلٍ

مِن خِلاَل تَجْمِيشَةٍ أَو مُلاَطَفَةٍ

وهُمَا تَجْهَلاَن مَا أُريدُ أَن أُفْضِي بِه إِلَيْكِ

وشَعَرْتُ بِتَيْنِكَ الذِّراعَيْنِ تَرْتَجِفَانِ

حين أَرَادَتا أَن تُكَوِّنَا إِكْلِيلاً حُلْواً

يُطَوِّقُ عُنُقِي

إِن حَركاتِهما تَعُودُ إلى ذَاكِرَتِي

في عُزْلَةِ السَّاعَاتِ الصَّامِتَةِ

مِثْلَ الشياطين التي تَكْشِفُ لِي في فَرَحٍ

أَشْيَاءَ أَخْفَيْتِها أَنْتِ عَنِّي

إِن أُغنِيَاتِي كالنَّحْلِ

تُتَابِعُ في الجَوّ أَثَراً مُعطَّراً مِن آثَارِكِ

ذِكْرَى مِن ذِكْرَيَاتِكِ

لِتَطِنَّ حَوْلَ عُزْلَتِكِ

شَرِهَةً إلى كَنْزِها الخَفِيّ

وحِين تَذُوب طَرَاوَةُ الفَجْرِ

فِي دِفْءِ الشَّمْسِ
وحِين يَصيرُ الهَوَاءُ ثَقِيلاً في الظَّهِيرَةِ
وتُصْبِحُ الغَابَةُ سَاكِتَةً
فَإن أُغْنِيَاتي تَعُودُ إلى مَأْوَاهَا
والأَجْنِحَة الوَاهِنَةُ قَد كُسِيَتْ
بِغُبَارٍ ذَهَبِيٍّ

9

أَظُنُّنِي سَأَقِفُ مَذْهُولاً
إذا قُدِّرَ لِي أَن أَلتَقِي بِهَا في حَيَاة أُخْرَى
وحين أَمْشِي على ضَوْءِ العَالَمِ المَاضي

فإنّي سَأَتَعَرَّفُ إلى تَيْنِك العَيْنَيْنِ
السَّمْرَاوَيْن مِثل نُجومِ الصباح
ولكِنني سوف أُحِسُّ أَنَّهُمَا تَنْتَمِيَانِ
إلى سَمَاءٍ مَسَائِيَّةٍ مَنْسِيَّةٍ

تَعُودُ إلى حَيَاةٍ لَنَا سَابِقَةٍ
وأَعرِفُ أَن سِحْرَ مُحَيَّاكِ
لاَ يُخُصُّكِ بِصِفَةَ تَامَّةٍ
ولَكِنه سَرَقَ الأَنْوارَ المُتَيَّمَةَ
التِي كانت تُومِضُ في عَيْنَيَّ
عِند ذَلِك اللِّقَاءِ الضَّائِعِ في النِّسْيَانِ
وجَمَعَ مِن حُبِّي القَدِيمِ
سِرّاً نَسِيَ الآنَ أُصُولَهُ

10

ضَعِي عُودَكِ يا حَبِيبتي
وأَطْلِقِي ذِرَاعَيْكِ لِمُعَانَقَتِي
ودَعِي مُلاَطَفَتَكِ
تَحْمِل قَلْبي المُفْعَمَ إلى الحَافَّة العُلْيَا
من جَسَدِي

لا تُشيحي بِرأْسِكِ

ولا تَنْزَعي مُحَيَّاكِ

ولَكِن قَدِّمِي إليّ قُبْلَةً كَانتَ مَكْتُومَةً

مِثلَ العِطْرِ المُقَيَّدِ في البُرْعُم

مُنذُ آمَادٍ طَوِيلَةٍ

لا تَخْنقُي هَذه اللَّحْظَةَ في كَلِمَاتٍ عَاتِيَةٍ

ولَكِن دَعِي قَلْبَيْنَا يَرْتَجِفَانِ

في نَهْرٍ مِن الصَّمْتِ يَكْسَحُ كُلَّ الأَفْكَارِ

في طَرِيقِهِ إلى الفَرْحَةِ التِي لا

حَدَّ لَهَا . .

11

لَقد جَعَلْتِنِي عَظِيماً بِحُبِّكِ

وإن كُنْتُ لَسْتُ سِوَى وَاحِدٍ

مِن الذين يَجْرُفُهُمُ التَّيَّار.

لقد أَعْطَيْتِني مَقْعَداً
حَيْثُ يُقَدِّمُ شُعَرَاءُ كُلِّ العُصُورِ هِبَاتِهم
والعُشَّاقُ مِن ذَوِي الأَسْمَاءِ الخَالِدَةِ
يَتَبَادَلون التّحِيَّات عَبْرَ الأَحْقَابِ.
كَثِيرٌ مِن النَّاس المُسْتَعْجِلِين
يَمُرُّون قُرْبي في السُّوقِ
دُون أن يُلاَحِظُوا أَن جَسَدِي صَارَ
شَيْئاً ثَمِيناً بِالنِّسْبَةِ لِمُلاَطَفَتِكِ
وأَنَّنِي أَحْمِلُ في دَاخِلِه قُبْلَتَكِ
كَمَا تَحْمِلُ الشمْسُ في فَلَكِهَا
نَارَ المُلاَطَفَةِ المُقَدَّسَةِ
وتَتَأَلَّقُ بِهَا إِلى الأَبَدِ

(12)

قَلْبِي اليَوْمَ

كالطِّفْلِ الذي يَغْتَمُّ ويَرْفُض أَلْعَابَهُ
وهو يَهُزُّ رَأْسَه رَافِضاً كُلَّ عِبارَةٍ
أَقْتَرِحُها عَلَيْه
(لاَ . . لَيْست هَذهِ مَا أُريدُ)
ومع ذلك، فَإِنَّ الكَلِمَاتِ في وَجَعِ
غُمُوضِها تَعُودُ إِلى فِكْرِي مِثْلَ الغُيُومِ
الرَّاحِلَة، المُعَلَّقَة فَوْقَ الهِضَاب
وهي تَنْتَظِرُ أن تَهُبَّ عَلَيْهَا رِيحٌ عَابِرَةٌ
تُحَرِّرُهَا مِن أَمْطَارِهَا
ولَكِن دَعِي هَذِه المُحَاوَلاتِ العَابِثَة
يا نَفْسِي دَعِي هَذِه المُحَاوَلاتِ العَابِثَة
يا نَفْسِي لأَِن الصَّمْتَ سَوْفِ يُنْضِجُ
مُوسِيقَاه في الظَّلاَمِ .
حَيَاتِي اليَوْم مِثَل الدَّيْرِ

أثْنَاءَ إحدى التَّوْبَات

حَيْث يَخْشَى الرَّبيعَ نَفْسه

أَنْ يَطُوفَ بِهِ أَو يَهْمِسَ إِلَيْهِ

لَيْس هَذَا هُو الوَقْتَ المُلاَئِمَ لَكِ

يا حَبيبتِي

لِكَي تَجْتَازِي البَوَّابَة

فَبِمُجَرَّد الفِكْرَةِ في رَنين خَلاَخِيلِكِ،

عَبْر الطَّريق سَتَضَرَّجُ خَجَلاً

أَصْدَاءُ الحَدِيقَةِ

فَلْتَعْلَمِي أَن أَغانِي الغَد

مَا تَزَالُ اليَوْمَ فِي بَرَاعِمِهَا

فإذا رَأَتْكِ تَخْطرِين قَرِيباً مِنْهَا

فإنَّها سَوْف تُجْهِدُ نَفْسَها

حَتَّى تُمَزِّقَ قُلُوبَها التي لَم تَتَفَتَّح بَعْد.

13

مِن أَيْن هَذا الهمُّ . . يا حبيبتي؟

دَعِي قَلْبي يَلْمَس قَلْبَكِ

وَاطرُدي بِقُبْلَةٍ أَلَمَ صَمْتِكِ .

لقد أَخْرَج اللَّيْلُ مِن أَعْمَاقِهِ

هَذه السَّاعَةَ الخَاطِفَةَ

حَتَّى يَتَمكَّنَ الحُبُّ أن يُشيِّد كَوْنَهُ الجَدِيد

دَاخِلَ هَذه الأَبْوَاب المُقْفَلَة

وأن يُضَاءَ فقط بهذا النُّور المُسْتَوْحِد

أَمَّا المُوسيقى ، فَلَدَيْنَا هَذه الزَمَّارَة

التي تَتَبادَلُ شِفَاهُنَا العَزْفَ عَلَيْها

بالتَّنَاوُبِ

وللتَّتْوِيج لَدَيْنا هَذا الإكليلُ الوَحِيدُ

تُطَوِّقين بِهِ شَعْرِي ، بَعْدَ أَنَ تَكُوني

قَد وَضَعْتِهِ فَوْق جبينك.

وأُمَزِّقُ حِجَابَ صَدْرِي

لأجْعَل مِنْه فِراشَنَا فَوْق الأَرْض.

وقُبْلَةٌ وَاحِدَةٌ

وَغَفَوْةٌ وَاحِدَةٌ من غَفَوَاتِ اللَذَّةِ

سَتَمْلأُ عَالَمَنَا الصَّغِيرَ اللاَّمَحْدُود

15

لقد لَبِسْتُ اليومَ ثَوْبَي الجَدِيد

حتَّى يَشْعُرَ جَسَدِي بالسَّعَادَة

لاَ يَكْفِي أَن أَكُونَ قَد وَهَبْتُ نَفْسِي

لحَبِيبتي إلى الأَبَد

ولكن عليّ أن أتَخَيَّلَ كُلَّ يَوْمٍ هَدَايَا

جَدَيدَة.

أَلاَ يَبْدُو هَدِيَّة جَدِيدَة إرتِدَاءُ

ثَوْبٍ جَدِيد؟

إنّ قَلْبِي كَسَمَاء المَسَاءِ

لَهُ عِشْقٌ غَيْرُ مَحْدُودٍ لِلألْوَانِ

ولِذَلِكَ فَإنِي أُغَيِّرُ خُمُرِي

فَيَكُون لَها حِيناً لَوْنُ العُشْبِ النَّضِيرِ .

وأَحْيَاناً لَوْن الأُرْزِ الخَرِيفِي

واليَوْمَ فَإنَّ ثَوْبِي مَصْبُوغٌ بالأزْرَق

لَون السَّماءِ المُطَرَّزَةُ حَوافِيها بالمَطَر.

إنَّه يُعْطِي لِجَسَدي لَوْنَ اللاَّمَحْدُود

وهِضَاب مَا وَرَاءَ البِحَار

وفي ثَنَايَاهُ يَحْمِلُ فَرْحَةَ الغُيُومِ

الصَّيْفِيَّةِ التِي تَطِيرُ مع الرِّيح .

(18)

اللَّيْلُ يَزْدَادُ عُمْقاً

واللَّهبُ المُتَضرِّمَ يَرْتَجِفُ في المِصْبَاح .

وقد نَسِيتُ أَن أَلاحِظَ

أَن إحْدَى صَبايَا القَرْيَةِ

وللمَرَّةِ الأخيرَةِ في ذلك النَّهَارِ

قد مَلأتْ جَرَّتَها مِن النَّهْر

ثُمّ أَغْلَقَت بَابَ كُوخِها

إِني أَتحَدَّثُ إِلَيْكِ يا حَبِيبتِي

ولاَ أَكَادُ أَعِي صَوْتِي إلا وَعْياً خَفِيفاً

قُولي . . هَل لِهَذا الصَّوتِ مَعْنَى؟

أَيَحْمِلُ إِليك بَعْضَ الرَّسَائِل الآتِيَةِ

مِن وَرَاءِ حُدُودِ الحَيَاة؟

ومُنْذُ تَوَقَّفَ صَوتِي

أُحِسُّ اللَّيْلَ يَنْبِضُ بِالأَفْكَارِ

التِي تُحَدِّقُ بِدَهْشَةٍ

فِي هَاوِيَةِ صَمْتِها

14

لَقَد أَعْطَيْتُكِ كُلَّ مَا أَمْلِك

واحتَفَظْتُ فَقَطْ

بِذلك الحَدِّ الأَدْنى من حِجَابِ التَحَفُّظ

وَهُو من الرَّهَافَةِ بِحَيْثُ كان يَدْفَعُكِ

إِلى الابتِسام مِنْه في خَفَاء

ويَدْفَعني إلى الخَجَلِ والحَيَاء.

إِن نَسِيمَ الربيعِ يُبَدِّدَهُ

عَلى غَيْرِ قصد.

وَخَفَقان قَلْبِي يُحَرِّكُهُ

كَما تُحَرِّكُ الأَمْوَاج رَغْوَةَ البَحْر.

يَا حَبِيبَتي

لاَ تَتَأَلَّمِي إذا احتَفَظْت حَوَالَيَّ

بِهَذا الضَّبَابِ الرَّهِيفِ من البُعْد،

فَهَذا التَحَفُّظُ الهَشُّ
لَيْس هُو انْطَواءً عَن المَرأة فَقطْ
ولَكِنَّه سَاقٌ رَفيعَةٌ تَنحَنِي من فَوْقِها
زَهْرَةُ استسلاَمِي ، لِتُطِلَّ عَلَيْكِ
بِلُطْفٍ كَتُوم .

(16)

ظَنَنْتُ
أَنَّني كَتَبْتُ كَلِمَاتِ الحُبّ
بأَلْوَانِها نفسِهَا

ولَكِن الحُبُّ كان يَسْتَلْقِي في أَغْوارَ القَلْب
والدُّموعُ شَاحِبَةٌ
أَنْتِ وَحْدَكِ سَتَفْهَمِينَ
مَا إِذَا كَانَت الكَلِمَاتُ خَالِيَةً من الأَلْوَان .
وفَكَّرْتُ في أَنْ أَغنِّي كَلِمَاتِ الحُبّ

بِألْحَانِها نفسَهَا

ولَكِن هَذِه الألحانَ كَانَت تَتَرَدَّدُ

في قلبي وَحْدَه

وعَيْنَاي صَامِتَتَانِ

هَل سَتَفْهَمِينَها يَا صَدِيقَتِي

إِذا خَلَت مِن الأَلْحَانِ المُصَاحِبَة؟

17

جَاءَتْني الأُغْنِيَةُ عِنْدَ اللَّيْل

ولكنّك لَم تَكُوني مَوْجُودَةً

لَقَد وَجَدْتُ الكَلِمَاتِ التي بَحَثْتُ عَنْها

طوَال النَّهَارِ

وفي السُكُونِ، وبَعْدَ لَحْظَةٍ من الظُلْمَة

خَفَقَت هَذِه الكَلِمَاتُ بالمُوسِيقَى

وبالذَّات، في الوقت الذي بَدَأت فِيهِ

النُّجُومُ تَنْبِضُ بالنُورِ
ولَكِنَّك لَم تَكُونِي مَوْجُودَةً
وكُنْتُ أَرْجو أن أَغَنِّيها لَكِ عِند الصَّبَاح
ورَغْمَ مُحَاوَلاتي المُسْتَمِرَّة
ورَغْمَ مُواتَاةِ الأَنْغَام المُوسِيقِيَّة
فَإِن الكَلِمَات ظَلَّت بَعِيدَة عَنِّي
حِين كُنْتِ إلى جَانِبِي

19

حِينَ التَقَيْنَا أول مرَّةَ
نَحن الاثنَيْن
انْشَرَحَ قَلْبِي وغَنَّى فِي انبِسَاطٍ
(تِلك التِي كانت دَوْماً بعيدةً عنكَ
تَقِف الآنَ إلى جِوَارِكَ إلى الأَبَدِ)
والآنَ ، خَفَتَت تِلك المُوسيقى

لأنّي انتَهَيْتُ إلى الاعتِقَادِ أن حَبيبتي

قَرِيبَةٌ مِنِّي

ونَسِيتُ أنها حتَّى عِندَمَا كانَتَ بعيدةً

بعيدةً جِدّاً

كانَت الموسيقى تَمْلأُ الفَراغَ الهَائِلَ

بَيْنَ رُوحَيْن

لقد خَفَّفَ مِنها حِجَابُ العَادَاتِ المَألُوفَة .

وفي ليالِي الصَّيف الخَجْلَى

وحِين كان نَسِيمُ الصَّمْتِ

يَسْحَبُ غمْغَمةً رَجِيبَةً

فإنّي أنْهَضُ للجُلُوس في فِرَاشي

وأشْكُو الخَسَارَة الكَبِيرَة

خَسَارَتي بِفِقْدانِ هَذِه التي تَقُوم

إلى جَانِبِي

وأسأَلُ

مَتى أَحْظَى مِن جَدِيدٍ بتِلك

الفُرْصةِ لأَهْمِسَ إِليها بالكَلِمَاتِ

التي تَحْمِلُ في أَعْمَاقِها إيقاع الخُلُود؟

استَيْقِظْ يا نَشِيدِي من الخُمُول

ومَزِّقْ سِتَارَ العَادِيِّ والمَأْلُوفَ

وحَلِّقْ مِن هُنَاك

مِن عِنْدِ حَبِيبتي

بِروْعَة المُفَاجَأةِ العَظِيمَةِ

لِلقَائِنَا الأَوَّلِ.

22

لَقَد رَحَلَتْ

حِين أَوْشَك اللَّيْلُ عَلى الرَّحِيل

وحَاوَل فِكْرِي أَنْ يُعَزِّيَنِي

قَائِلاً : كُلُّ شَيءٍ بَاطِلٌ

فَأَحْنَقَنِي ذَلِك ، وقُلْتُ لَهُ

هَذِه الرِّسَالةُ المُغْلَقةُ ، وقد كُتِبَ

اسمُها فَوْقَها . وهَذِه المِرْوَحَةُ

المَصنُوعَةُ من سَعَفِ النَّخِيلِ

المَزَيَّنَةُ حَوافِيها بالحَرِيرِ الأحْمَرِ

مِن صُنْعَ يَدَيْهَا . . أَلَيْسَت أشْيَاءَ

حَقِيقيَّةً ؟

ومَضَى اليَوْمُ وجَاء صَدِيقي

قَائِلاً : كُلُّ مَا هُو طَيِّبٌ وَحَقِيقِي

لَن يَضِيعَ سُدَى

فَأَجَبْتُه في صَبْرٍ نَافِد .

وكَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِك؟

ألمَ يكُن طَيِّباً هَذا الجَسَدُ

الذِي ضَاعَ الآنَ مِن الحَيَاة؟

كُنْتُ كالطِّفْلِ الغَاضِبِ الذي يَضْرِبُ
أمَّهُ، أحَاوِلُ أن أُدمِّر كُلَّ ملاذٍ
في أعْمَاقِي
وفِيما حَوَالَي. وصَرَخْتُ:
إن هَذَا الكَوْنَ غَادِرٌ
وَفجْأةً سَمِعْتُ صَوْتاً يَهْتِفُ:
أيُها الجَاحِدُ!
وتَأمَّلْت المَشْهَدَ خَارِجَ النَّافِذَةِ
ومِن اللَّيْلِ المُرَصَّعِ بالنُّجُومِ
بَدَا أنَّه يَهْبِطُ عَليَّ لَوْمٌ:
اسْكُب في فَرَاغِ غَيْبَتِي
إيمَانَكَ في حَقِيقَةِ أنِّي جِئْتُ

23

النَّهرُ كانَ رَمَادِياً

والجَوُّ كان مُكْفَهِراً بِسَبَبِ الرِّمالِ التي تَحْمِلُها الرِّياحُ.

وفي صَبَاحٍ مِن القَلَقِ الغَامِضِ

حِين تَصْمُتُ الطُّيُورُ

وتَرْتَجِفُ أَوْكَارُها بِعَصفِ الرِّيَاحِ

كُنْتُ أَجْلِسُ وَحِيداً وأَتَساءَلُ

أينَ هِيَ؟

لَقَد مَضَت الأَيَّامُ التي كُنَّا نَجْلِسِ فِيهَا

مَعَاً مُتَجَاوِرَيْنِ مُتَقَارِبَيْن

نَضْحَكُ ونَسْخَرُ

والرَّهْبَةُ من جَلاَلِ الحُبِّ لَمَ تَكُنَ تَجِدُ

كَلِمَاتٍ نُفْضِي بِهَا في هَذِهِ اللِّقَاءَاتِ.

وكُنْتُ افتَعِلُ طيش الصغر

وكَانَت هِيَ في كُلِّ لَحْظَةٍ

تَجُودُ بالأحاديث التي لا مَعْنَى لَهَا

واليَوْمَ، أَرْغَبُ عَبَثاً

لَو كَانت هِيَ بِجَانِبي

في ظَلاَمِ العَاصِفَة القَادِمَةِ

لِكَي نَجْلِسَ مَعاً في عُزْلَةِ الرُّوحِ

وَوَحْدَتِها.

24

إِنَّ الاسْمَ الذِي كَانت تَدْعُوني بِهِ

كَاليَاسَمِين المُزْهِرِ

كَان يُغَطِّي سَبْعَةَ عَشرَ عَاماً

مِن حُبِّنَا

وفِي صَوْتِهِ، كَان يَمْتَزِجُ

ارتِجَافُ النُّور بَيْنَ أَورَاقِ الشَّجَر

وَرَائِحَةُ العُشْبِ في لَيَالِي المَطَر

والصَّمْتُ الحَزِينُ لِلسَّاعَةِ الأَخِيرَةِ

مِن بعض الأَيَّامِ الكَثِيرَةِ الخَامِلَة.

إِن ما يُطَابِقُ هَذَا الاسْمَ
لَمَ يَكن مِنْ خَلْقِ اللَّه وَحْدَه.
ولَكِنَّها أَعَادَت خَلْقَهُ مِن جَدِيدِ لِنَفْسِها
في تِلك الأعوامِ السَّبْعَة عَشَر العَذْبَة
وكَانَ عَلى أَعْوَامٍ أُخْرَى أَن تَتلاحَقَ
ولَكِن أَيَّامَها التَّائِهَة
لَم تَعُدْ تَتَجمَّعُ وتَتَوحَّدُ في حِضْنِ ذَلِك الاسْم.
فَمَا تَكَادُ تَنْطِقُ بِهِ حَتى تَتلاَشَى وتَتَبدَّدُ
وَهِي تَسْأَلُني (مَن الذِي سَيُعِيدُ تَوْحِيدَنا)
فَلاَ أَجِدُ رَدّاً وأَجْلِسُ في صَمْت
فَتَشْرُدُ وتَتلاَشى وتَصْرَخُ فِيّ:
إِنَّنا نَبْحَثُ عَن رَاعِيَةٍ صَغِيرَةٍ
ولَكِن من الذي سَيَبْحَثُ عَنْهَا؟
إِنها لاَ تُعْرَفُ. إِنَّها كالغُيُوم المَهْجُورَةِ
المَسَائِيَةِ التي تَتَّجِهُ نَحْو مُنْحَدَرات

الظُّلْمَةِ الخَالِيَةِ من الدُّرُوب
وهُنَاكَ تُفْقَد وتُنْسَى .

25

أَشْعُرُ أَنَّ أَيَّامَ حُبِّكِ القَصِيرَةَ
لَم نَتْرُكْها وَرَاءَنا
فِي تِلك الأَعْوَام القَلِيلَةِ
مِن حَيَاتِنَا المُشْتَرَكَة .
وإِني لأَبْحثُ في أيّ مَكَانٍ بَعِيدٍ
عَن التُّرابِ الذِي يَسْرِقُ بِبُطْءٍ
احتَفَظت بِهَا
وفي وَحْدَتِي
أَجدِ بَعْضَ الأغْنِيَاتِ مِن الأُمْسِيَةِ
التِي وَافَاكِ المَوْتُ فِيهَا
ولَكِنَّها تَرَكَت صَدى خَالِداً

وَزَفَراتِ سَاعَاتِك غَيرِ الرَّاضِيَة
أَجِدُها مُنْطَوِيَةً على نَفْسِها في الظَّهيرة الخَرِيفِيَّةِ
الهَادِئَةِ
تَأْتِي رَغَبَاتُكِ
مِن خَلِيَّة المَاضِي
لِتُعَذِّب قَلْبِي
وأَنَا أَجْلِسُ في صَمْتٍ
لأُصْغِي إلى حفيف أجْنِحَتِهَا

27

كُنْتُ أَمْشِي على طَريقٍ مُغَطَّاةٍ بالعُشب
حِين سَمِعْتُ فَجْأَة صَوْتاً يَتَرَدَّدُ خَلْفَ ظَهْرِي
(انْظُر . هَلْ تَعْرِفُنِي)
فَالتَفَتُّ، وتَأَمَّلْتُه، وقَلْتُ لَهُ :
(لاَ أَسْتَطِيعَ تَذَكُّرَ اسْمِكِ)

فَقالت :

(أَنَا أَوَّل أَلَمَ عَظيمٍ التَقَيْتَ

بِه في شَبَابِكَ)

عَيْنَاهَا تَبْدُوان صَبَاحاً مَا تَزَالُ

أَجواؤُهُ مُوَشَّحَةً بالضَّبَابِ .

ولَبِثْتُ بُرْهَةً صَامِتاً ثُمَّ قُلْتُ :

لَقد فَقَدْتِ كُلَّ حِمْلِكَ العَظِيمَ مِن الدُّموعِ .

فَضَحِكَت ولَم تَقُلْ شَيْئاً

وفَهِمْتُ أَن دُمُوعَهَا قد تَهَيَّأَلَهَا

الزَّمَنُ لِتَتَعَلَّم لُغَةَ الابتِسَام

وغَمْغَمَت قَائِلَةً :

في إِحدى المَرَّات كُنْتَ تَقُولُ إِن أَلَمَكَ

سَيَكُونُ عَزِيزاً عَلَيْكَ دَوْماً

فَخَجِلْت وقُلْتُ :

لَقد مَضَت أَعْوَامٌ ، ونَسِيتُ

ثُمَّ أَخَذْتُ يَدَها فِي يَدِي وقُلْتُ:
لَقَد تَغَيَّرْتِ
فَقَالَت:
مَا كَان أَلَماً ذَاتَ يَوْمٍ
صَار الآنَ سَلاَماً وطُمَأْنِينَة

28

حَيَاتُنا كَانَت تَمْخُرُ بَحْراً
لَمْ يُعْبَرْ مِن قَبْلُ.
أَمْوَاجُهُ مُتَلاحِقَةٌ
تُتَابِعُ فِيه المَوْجَةُ أُخْتَها
في لُعْبَةِ استِخْفَاءٍ خَالِدَة.
إِنَّهُ البَحْرُ الذِي يُهَيِّجُهُ التَّغْيِيرُ
ويَرْعَى قُطْعَانَه المُزْبِدَةَ
ويُضِيعُهَا أَلْفَ مَرَّةٍ

ويُصَفِّقُ يَدَيْهِ بِلا انقِطَاع
ضِدَّ هُدُوءِ السَّمَاء
وفي وَسَط هذه الرّقصة الدوّامةِ
من حَرْب النُّور والظَّلاَم
فَأَنت يَا حَبِيبتي
الجَزِيرَةُ الخَضْرَاءُ
حَيْث الشَمسُ تُقَبِّلُ الظِلَّ المُنْحَسِر
والصَّمْتُ يُغَازِلُ بِتَغْرِيدَ الطُّيور

30

كَانَ الفَنَّانُ يَبِيعُ لَوْحَاتِهِ في المَعْرِض
فَمَرَّ بِهِ، هُنَاكَ، ابنُ الوَزِيرِ
في مَوْكَبٍ من أَتْبَاعِهِ وخَدَمِهِ
وكَان والِدُهُ قد خَدَعَ وَالدَ الرَّسَامِ
فِي شَبَابِه فَقَتَلَه يَأْساً وكَمَداً

وتَمَهَّلَ الشَّابُ أَمَامَ اللَّوْحَاتِ، ثُمَّ اختَارَ
وَاحِدَة، ولَكِن الفَنَّانَ غَطَّى اللَّوْحَةَ
بِغَطاءٍ، رَافِضاً بَيْعَهَا، وحَطَّمَتْهُ
الرَّغْبَةُ في هَذِه اللَّوْحَةِ فَمَرِضَ
واضطُرَّ والدُهُ لِلذَّهَابِ إلى الرَّسَّام
وَقَدَّم إليه مَبْلَغاً كَبيراً من المَال
ولَكِن الفَنَّان رَفَضَ بَيْعَ اللَّوْحَة
واحتَفَظَ بِهَا مُعَلَّقَةً على جُدْرَانِ مِرْسَمِهِ
وكَان يَقُولُ لِنَفْسِه وهو جَالِسٌ
أَمَامَها: هَذا هُو انتِقَامِي
وكَان الشَّكْلُ الوَحِيدُ لِلعِبَادَةِ التي يُمَارِسُها
الرسَّام هُو أَن يَرْسُمَ كُلَّ يَوْمٍ صُورَةً
لِمَعْبُودِهِ
ولَكِنَّه اكتَشَفَ أَن هَذه الرُّسُومَ
تَتَّخِذُ كُلَّ يَوْم شَكْلاً مُخْتَلِفاً

عَن تِلْك التي اعتَادَ أن يَرْسُمَها

وَقد أَقْلَقَهُ هَذا الوَاقِع ، وحَاوَل

عَبَثاً أَنْ يَجِدَ لَهُ تَفْسِيراً

حتَّى انتَفَضَ أَحَدَ الأيَّام مِنَ عملِهِ

واكتَشَفَ أن عَيْنَي اللَّه اللَّتَين

رَسَمهما كَانتَا عَيْنَي الوَزِيرِ، وكَذَلِك

الشَّفَتينَ .

فَقَطَّعَ الرَّسْم تَقْطِيعاً وصَرَخَ

إِن انتِقَامِي قَد عَادَ عَلَى رَأْسي

31

حيْنَ وَصَلَ الْقَائِد إِلى مَحْضَرِ الْمَلِكَ

الْغَاضِب السَاْكِت

حَيَّاهُ قَائِلاً :

لَقَدْ عُوْقِبَت الْقَرَيَة

وأُلْقِيَ الْرِجَال فَوْقَ التُرَابِ
أَمَا النِسَاءُ فَقَدْ انْكَمَشْنَ فِي بُيُوتِهِنَ
وَأَطْفَأْنَ الأَنْوَارُ
وَهُنَّ يَخفْنَ مُجَردْ الشكْوَى بِصَوْتٍ عَالٍ
فَنَهضَ الْكَاهِنُ الأَكْبَرِ وَاقِفَاً
وَبَارَكَ المَلِك ، مُعْلِنَاً
أَنَّ بَرَكَةِ اللَّه ستَكُون دَوْمَاً مَعَكَ
وَلَكِنَّ المُهَرِجَّ مَا كَادَ يَسْمَعُ هَذِهِ
الْكَلِمَاتِ حَتَىٰ انْفَجَرَ فِي ضِحْكَةٍ
عَالِيَةٍ مُدوِيَّةٍ جَعَلَتْ رحال البلاَطَ
المَلَكِيِّ كُلَّهُ يَنْهَضُونَ من مكَانِهِم
وَتَقْطَّبَ جبينُ الْمَلِك
فبَادَرَ الوَزِير إلى القَوْل
إِنَّ شَرَفَ الْعَرشِ مُسْتَنِدٌ إِلى شَجَاعَةِ
الْمَلَكِ وبَرَكَةِ اللَّه القَادِرْ

فَضَحِك المُهَرِّجُ ضِحْكَةً أقوَى مِن الأُولَىٰ

فَصَرَخَ المَلِكُ

هَذَا ضَحِك في غَيْرِ مَكَانِهِ

فَقَالَ المُهَرِّج

إنَّ اللَّه قَد أفَاضَ عَلَيْكَ مِن بَرَكَاتِهِ

أمَا الهِبَةُ الوَحِيدَةُ التِي مَنحَهَا لِي

فَهِيَ مَوْهِبَة إجَادةُ الضَحِك

قَال المَلِكُ شَاهِراً سَيفَهُ

إنَّ هَذِهِ المَوْهِبَةُ ستُكَلِفُكَ

حَيَاتَك

وَلَكِن المُهَرِّج نَهَضَ

وَظَلَّ يَضْحَكُ وَاقِفاً

حَتَى تَوَقَّف ضَحِكُهُ إلى الأبد

وخَيَّم ظِلٌ من الرُّعْبِ عَلَى البِلاَط

إذ سَمِعُوا جَمِيعاً صَدَى تِلْكَ

الْضِحْكَةِ يَتَرَدَّدُ فِي صَمْتِ

اللَّه العَمِيق .

33

بِوَحْشِيَةٍ

كَانُوا يُقَطِّعُونَ البِسَاط الذِي نُسِجَ

عَبْر أَحْقَابٍ من الصَّلاَةِ والدُّعاءِ

لِيُرَحِّبُوا بِأَعْظَمِ آمَال العَالم .

واستِعْدَادَاتُ الحُبِّ العَظِيمَةُ

كانَتْ مُرْتَمِيةً في كومَةٍ من الأَسْمَال البَالِيَة

ولاَ شَيءَ فَوْقَ الهَيْكَلِ المُتَدَاعِي

يُذَكِّرُ الجَمَاهِيرَ المجْنُونَةَ

بِأَن إِلَهَهَا قَد جَاءَ .

وفي غَضْبَةٍ تَدْمِيرِيَّةٍ

بَدَوا وكَأَنَّهم أَحَالُوا مُسْتَقْبَلَهم إِلى رَمَادٍ

وَمَعَه أَيْضاً مَوْسِم أَزَهَارِهِم

وَمِنَ الجَوِّ كَانَ يَتَرَدَّدُ حَادّاً قَاسِياً

الصُّراخ:

إن الوْحشَ ينتصر

وكان لِلأطْفَال مَظْهَرُ الشُيُوخِ الضامرين

ويَتَبَادَلُون الهَمْسَ

بِأَنَّ الزَّمَنَ يَدُورُ ولَكِنَّه لاَ يَتَقَدَّمُ أَبَداً

وأَنَّنا نُؤخَذُ لِلْعَدُوِّ

ولَكِن لَيْسَ لَنَا شَيْءٌ نَصِلُ إِلَيْهِ

وأن الخَلْقَ كالأَعْمَى يَتَقَدَّمُ الرَّكْبَ مُتَرَنِّحاً

قَائِلاً لِي (تَوَقَّفْ عَن الغِنَاءِ

إِن الغِنَاء لِمَن يَأْتِي، أَمَّا الصِّرَاع الذِي

لاَ حَدَّ لَه فَلِلأَشْيَاءِ التي وُجِدَت فِعْلاً)

إِن الطَّرِيقَ تَنْبَسِطُ دَوْماً

وَقَد وَضَع أَحَدُهم أُذْنَه فَوْق الأَرض

يَتَسَمَّعُ صَدَى الخُطُوَاتِ
لاَ يَجْمَعُ أَيَّ إِشَارَةٍ تَدُلُّ عَلَى
الضَّيفِ القَادِمِ
لاَ شَيْءَ يَأْتِي مِن بَيْتِهِ الوَاقِع في الأَقَاصِي
وقَال عُودِي :
لِتُدْسَّنِي فَوْقَ الأَرْض
وتَأَمَّلْتُ التُّرابَ عَلى حَافَةِ الطَّرِيق .
كَانَت هُنَاكَ زَهْرَةٌ بَيْنَ الخَرائِبِ
فَصرَخْتُ (إِن أَمَلَ العَالَمِ لَم يَمُتْ)
ومَالَت السَّماءَ على الأُفُقِ
تَهْمسُ لِلأَرْضِ
وَصمْتُ مَلِيء بالانتِظَارِ والتَّوَقُّعِ أَفْعَم الجَوَّ
ورَأَيتُ أَوْرَاقَ النَّخِيلِ
تُصَفِّقُ عَلى إِيقَاعِ موسيقي غَيْرِ مَسْمُوعَة
والقَمَر يَتَبَادَلُ نَظْرَةً مع الصَّمْت المُتَأَلِّقِ

فَوْق البُحَيْرَةِ

وقَالتَ لِي الطَّرِيق (لاَ تَخَفْ)

وقَال لِي عُودِي (أَعِرْنِي أُغْنِيَاتِكَ)

1

تَعَالَ أَيُّها الرَّبيع

يا عَشِيقَ الأَرْضِ المُتَهَوِّر

اجْعَلْ قَلْبَ الغَاب

يَتَشَوَّق لِلْتَعبِيرِ عَنْ نَفْسِهِ

تَعَال مَع هَبَّاتِ الرِّياحِ القَلِقَة

حَيْثُ تُزْهِرُ البَرَاعِمْ فَجْأَةً

وفَتِّحْ أوراقاً جديدة

وانفَجِرْ كَثُورةٍ مِن النُّورِ

عَبْرَ سَهَرِ اللَّيْلِ

عَبْرَ ظَلاَم البُحَيْرَة

وَعَبْرَ السُّجُونِ القَابِعَة تَحْتَ التُّراب
ولتُعْلِنْ حُرِّيَة البُذُورِ المَشْدُودَةِ لِلقُيُودِ
ومِثْل ضَحْكَةِ البَرْق
ومِثْلَ صَرْخَةِ الغَاب
لِتَنْدَفِعْ بِعُنْفٍ في المَدِينَة الحَافِلَةِ بالضَّجِيج
وحَرِّرْ الكَلِمَاتِ المَخْنُوقَة
ولتُعْطِ حَيَوِيَّةً لِمَعْرَكَتِنَا الخَامِلَة
ولتَظْفَرْ بِالمَوْت.

2

لقد رَاقَبْتُ هذا المَشْهَدَ الرِّيفِيّ
في عِدَّة أَشْهُرٍ من مَارِس
حِين يُزْهِرُ.
وهذا الخَطُّ الكَسُولُ مِن المَاءَ
ولَوْنَ الرِّمَالِ الرَّمَادِي الذيَ يَتَعَالَى

عَنْ بُعْدٍ

والدَّرْبَ المُنْعَزِلَ القَائِمَ على طُول ضِفَّة النَّهْرِ

الذي يَحْمِلُ زَمَالَةَ الحُقُولِ

إلى قَلْبِ القَرْيَةِ.

وَحَاوَلْتُ أن أَضَع في الشِّعْرِ

صَفِيرَ الرِّيَاحِ الكسول فِي زَوْرَقٍ عَابِرٍ

وخفقات المجدافِ

وذُهِلْتُ مِنْ بَسَاطَةِ مَا يَقَعُ أَمَامي.

فِي هَذَا الكَوْن العَظِيم.

بِأَيَّةِ سُهُولَةٍ مَأْنوسَة مَأْلُوفَة مُحَبَّبَةٍ

مَلأَ قَلْبي

هَذَا اللِّقاءُ مَع الغَرِيبِ الأَبَدِيّ

(5)

فِي عَالَمِ الطِّفْل.

أنَّ الأَشْجَارُ تُحَرِّكُ أَوْرَاقَها تَحِيَّةً لَهُ

وَتَهْمسُ إِلَيْهِ بِأَشْعَارٍ مُصَاغَةٍ

فِي لُغَةٍ قَدِيمَةٍ سَابِقَةٍ عَلَى عَهْدِ الكَلِمَات

والقَمَرُ يَتَظَاهَرُ بِأَنّه تِرْبُه

المتمثّل في تِلك الطِّفْلَةِ المُسْتَوْحِدَة في اللَّيْل .

أَما فِي عَالَم الشَّيْخِ

فَإِن الزُّهُور تَحْمَرُّ خَجَلاً وَإِجْلاَلاً

مِنْ تَصَنُّعِ الأَسَاطِيرِ

والدُّمَى المَكْسُورَة تَعْتَرِفُ بِأَنَّها

قَد صُنِعَت من الطِّين .

7

أَيَّتُها الأَرْضَ العَظِيمَةُ

ما أَكْثَرَ مَا أَحْسَسْتُ بِالرَّغْبَةِ

للا نصِهَارِ فِيكِ

مُشَاطِراً شُعُورَ الفَرَحِ
كُلَّ عُودٍ نَحِيلٍ من العُشْبِ
يَرْفَعَ عَلَمَهُ إشَارَةَ الجَوَابِ
عَلَى نِدَاءِ الزُّرْقَةِ الدَّاعِيَةِ مِن السَّمَاء.
وَيَبْدُو لِي أَنِّي كُنْتُ مُلْكاً لَكِ
قَبْل أَحْقَابٍ طَوِيلَةٍ مِنْ مِيلاَدِي
وَذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ الذي يَجْعَلُنِي
خِلاَلَ الأَيَّامِ التِي يَلْمَعُ فِيها نُورُ الخَرِيفِ
فَوْقَ سَنَابِل الأَرْزِ النَّاضِجَةِ - أَبْدُو
وَكَأَنِّي أَذْكُرُ مَاضِياً يَكُونُ مَعَهُ
فِكْرِي فِي كُلِّ مَكَان
حَتَّى لِيُخَيَّلُ إلي أَنِّي أَسْمَعُ
أَصْوَاتَ رِفَاقِ اللَّعِبِ
يَتَرَدَّدُ صَدَاهَا قَادِماً مِنْ مَاضٍ
مُحَبَّبٍ سَحِيق .

وَحِينَ تعُودُ القُطْعَانُ فِي المَسَاءِ
إلى حَظَائِرِها، مُثِيرَةً خَلْفَها
سَحُباً مِنْ الغُبَارِ، فِي دُرُوبِ
المَرَاعِي
وَبَيْنَما يرْتَفِعُ القَمَرُ فَوْقَ أَعْمِدَةِ
الدُّخَانِ المُتَصَاعِدَة في كَسَلٍ
مِنْ أَكْوَاخِ القَرْيَةِ
أحِسُّ حُزْناً كَذَلِكَ الحُزْنِ الذِي تَمَّ
لِذَلِكَ الفِرَاقِ العَظِيمِ
فِي أَوَّلِ صَبَاحٍ مِنْ خَلْقِ الكَوْن

3

الزَّوْرَقُ العَبَّارُ
يَقُومُ بِوَظِيفَةِ المَكُوكِ
بَيْنَ القَرْيَتَيْنِ المُتَقَابِلَتَيْنِ

عَلى ضِفَّتَي النَّهْرِ.

والمَجْرَى المَائِي لَيْسَ وَاسِعاً وَلاَ عَمِيقاً

مُجَرَّدُ فَاصِلٍ بَسِيط في الطَّرِيق

يَزِيد مِنْ ازْدِهَارِ المُغَامَرَاتِ الصَّغِيرَةِ

فِي الحَيَاةِ اليَوْمِيَّة.

مِثْلَ الوَقْفَةِ فِي كَلِمَات الأُغْنِيَّة

تَجْرِي عَبْرَها المُوسِيقَى بِفَرَحٍ وانْشِرَاح.

وَبَيْنَمَا تَرْتَفِعُ أَبْرَاجُ الثَّوْرَةِ

عَالِيَةً شَامِخَةً ثُمَّ تَسْقُطُ فِي الدَّمَار

فَإنَّ هَاتَيْنِ القَرْيَتَيْنِ تَتَبَادَلاَنِ

الحَدِيثَ عَبْرَ النَّهرِ المِهْدَار

وَيَسْتَمِرُّ الزَّوْرَقُ فِي أَدَاءِ مُهِمَّة المَكُوك

فَصْلاً بَعْدَ فَصْلٍ

وَمِنْ مَوْسِمِ البَذْرِ إلى مَوْسِمِ الحَصَاد

9

الغُيُومُ تَتَكَاثَفُ
حَتَّى ليبدُو نُورُ الصَّبَاحِ
وَكَأَنَّه خَيْمَةٌ بَلَّلَتْهَا لَيْلَةٌ مُمْطِرَة
وَطِفْلَةٌ تَجْلِس إِلَى النَّافِذَةِ
ثَابِتَةٌ كَأَنَّها قَوْسُ قُزَح
عَلَى بَابِ عَاصِفَةٍ مُدْبِرَةٍ
إِنَّها قَرْيَتِي
وَقَد جَاءَتْ هَذِهِ الأَرْضُ
كَمَا تَجِيءُ ابتِسَامَةُ أَيّ إِله عَاصٍ
تَقُولُ أُمُّهَا فِي حَالاَتِ الغَضَبِ
إِنَّها لاَ يُمْكِنُ إِصْلاَحُها
وَيَبْتَسِمُ وَالِدُهَا وَيَقُولُ:
إِنَّها مَجْنُونَةٌ

إنَّها كالشَلاَّلِ الهَادِرِ

الذي يَقْفِزُ وَيَثِبُ فَوْقَ الصُّخُور

ومثل ذرى أَشْجَارِ البَامبُو

التي يَتَعَالى حَفِيفُها مَع الرِّيحِ الثَّائِرة .

إنَّها تَجْلِسُ إلى نَافِذَتِهَا

وَتُحَدِّقُ في السَّمَاءِ

وَتَأْتِيها أُخْتُهَا قَائِلَةً

تَعالَيْ ، إن أُمَّكِ تُنَادِيكِ

وَلَكِنَّها تَهُزُّ رَأْسَها

وَيُحَاوِل أخُوها الصَّغِيرُ أن

يُغْرِيها باللَّعِبِ مَعَهُ بِزَوْرَقِهِ الصَّغِيرِ

فَتَنْزِعُ يَدَهَا مِنْهُ

وَحِينَ يُصِرُّ، تَضْرِبُهُ ضَرَبَاتٍ

خَفِيفَةٍ عَلَى كَفِله .

إنَّ أَوَّلَ الأَصْوَاتِ العَظِيمَة

عِنْدَ بِدَايَةِ الخَلْقِ
كَان عَزِيف الرِّيح وَهَدِير المَاءِ.
هَذَا الصَّوتُ العَرِيقُ فِي الطَّبِيعَةِ
وَنِدَاؤُهُ الصَّامِتُ للحَيَاةِ التِي لَمْ تُولَدْ
قَدْ بَلَغَ قَلْبَ هَذه الطُّفْلَةِ
وَحَمَلَها وَحْدَها إِلى أَبْعَد
مِنْ حُدُودِ زَمَانِنَا
وَهِيَ لِذَلِكَ تُقِيمُ هُنَاك فِي الأَعَالِي
وقد تَمَلَّكَتْهَا الأَبَدِيَّة

(10)

الطَّائِرُ النهري
قَدْ حَطَّ على مُؤَخَّرَةِ القَارِبِ الفَارِغِ.
وفِي مُنْخَفضِ ضِفَّةِ النَّهر
يَرْبُضُ جَامُوسٌ مُتَنَعِّماً بِغَفْوَتِهِ

مُتَذَوِّقاً لَذَّةَ طَرَاوَةِ الطِّينِ .

وَبقَرَةٌ تَرْعَى عِنْدَ الضِّفَّة

فَزِعَةٌ مِنْ عُوَاءِ كَلْبِ القَرْيَة

يَتْبَعُهَا فَرِيقٌ حَوَّامٌ مِن (الساليكس)

المُطارِدِ للحَشَرَات .

كُنْتُ جَالِساً فِي غَابَةِ ثَمَر الهِنْدِ الصَّغِيرَة

حَيْثُ تَتَجَمَّعُ صَرْخَاتُ الحَيَاةِ غَيْرِ النَّاطِقَة

خُوَارُ البَقَر، وَزَقْزَقَةُ العَصَافِير

وَتَصْفِيرَهُ الصَّقْرِ الحَادَّة،

وَبَرِيقُ السَّمَكِ السَّابِحِ فِي المَاء .

وَأَنَا أَرْقُبُ كُلَّ ذَلِكَ

فِي المَهْدِ الأَوَّل للحَيَاة

حَيْثُ الأُمُّ الأَرْضُ تَخْفُقُ

لأَوَلِ تَعْشِيشَةِ حَيَّةٍ حَوْلَ

نَهْدِهَا .

11

فِي القَرْيَةِ الغَافِية

كَانَت الظَّهِيرَةُ هَادِئَة

مِثْلَ سَائِرِ سَاعَات الزَّوَالِ المُتَوَهِّجَة .

وفي هَذَا الوَقْت انتهَت إجَازَتي

وابنَتي التِي كَانَت في عَامِهَا الرَّابع

ظَلَّتْ تَتْبَعُني طَوَالَ الصَّبَاح

مِن غُرْفَةٍ إلى غُرْفَةٍ

مُلاَحِظَةً في صَمْتٍ عَمِيقٍ استِعْدَادَاتي للرَّحِيل

حَتَّى إذَا أَحَسَّتِ بِالتَّعَب

جَلَسَتْ جِلْسَةً غَرِيبَةً هَادِئَةً

قُرْبَ عَتَبَةِ البَابِ وهي تُغَمْغِمُ بَيْنَها

وبَينَ نَفْسِهَا

أَبي لاَ تَذْهَبْ

كَانَت سَاعَةُ الغَدَاء، وَكانَ يَغْلِبُهَا
النُّعَاسُ في مِثْل هَذِهِ السَّاعَةِ
مِن كُلّ الأيَّام السَّابِقَة.
ولَكِن أمُّها نَسِيَتْهَا
وكانَت الطِّفْلَةُ حَزِينَةً إلى دَرَجَةٍ
لم تَقْدِرْ مَعَها على الشَّكْوَى
وأخيراً، حِين بَسَطْتُ ذِرَاعَيَّ لِوَدَاعِها
لَمْ تَتَحَرَّك مِنَ مَكَانِها، وَلكنّها نَظَرَتْ
إليّ في حُزْنٍ وَقالَت
أَبي . . يَنْبَغِي ألاَّ تَذْهَب
وابتَسَمْتُ حَتّى دَمِعَت عَيْنَاي
حِينَ فَكَّرْتُ كَيْفَ أن هَذِه الطِّفْلَة
الصَّغِيرَةَ تَجْرُؤُ على مُصَارَعَةِ
كَوْنِ الضَّرُورَة العِمْلاَق، دُونَ
سَنَدٍ سِوى هَذِه الكَلِمَاتِ

يَا أَبي - يَنْبَغِي ألاَّ تَذْهَب .

12

خُذْ إجَازَةً

يا طِفْلِي الصَّغِيرِ

هُنَاك السَّمَاءُ الزَّرْقاء

والحُقُولُ الجَرْدَاء

ومُسْتَوْدَعُ التِّبْن

وَأَطْلاَلُ الهَيْكَلِ تَحتَ شَجَرَة ثَمَر الهِنْدِ العَتِيقَة .

إن إجَازَاتي سَأتَمَتَّعُ بِها

مِن خِلاَل إجَازَاتِك

وَاجِداً النُّور في رَقْصَةَ عَيْنَيْكِ

والأنْغَامَ في صَرَخَاتِكَ الصَّاخِبَة .

إن الخَرِيفَ يَحْمِلُ إلَيْكَ

طَلاَقَة الإجَازَاتِ الحَقِيقِيَّة

أمّا أنَا فَيحْمِلُ إليّ استِحَالَةَ العَمَل

فَها أَنْتَ تَنْدَفِعُ إلى غُرْفتِي

أَجَلْ ، إن إجَازَتِي هِيَ الحُرِّيَة التي لاَ حَدَّ لَها

في أَنْ أُحِبَّ إزْعَاجَكَ لِي .

13

ذَاتَ مَسَاءٍ

أَصْغَت طِفْلَتِي الصَّغِيرَةُ

إلى نِدَاءِ رَفِيقَاتِها مِن تحت النَّافِذَة

فَهَبَطَت السُلَّمَ المُظْلِمَ مُسْرِعَةً خَائِفَةً

تَحْمِلُ في يَدِها مِصْبَاحاً تَحْمِيهِ

بِإِزَارِها مِن الانْطِفَاء .

كُنتُ جَالِساً في الشُّرْفَة

فِي لَيْلَةٍ من لَيَالِي مَارِس المُرَصَّعَة بالنُّجُوم

حِينَ سَمِعْتُ فَجْأَةً بُكَاءً

فَهُرِعْتُ لِكَي أَقِفَ بِنَفْسِيَ عَلَى مَصْدَرِه

لَقد انطَفَأَ مِصْبَاحُها عِند فَرْجَةِ

السُّلَّم المُظْلِمَة

فَسَأَلتُها لِمَاذَا تَبْكِين؟ بَامِي

فَأَجَابَتْنِي مِن أَسْفَلِ السُّلَّم في لَوْعَةٍ:

أَبتَاه.. إنَّنِي ضِعْتُ

وحِين عُدْت إلى مَكَانِي من الشُّرْفَة

تَحْتَ لَيْلِ مَارِس المُرَصَّع بالنُّجُوم

نَظَرت إلى السَّمَاءِ

وبَدَا لي أَن طِفْلَةً تَمْشِي هُنَاك

حَامِيَةً أنوَارَها العَدِيدَة بِإِزَارِهَا

فَإِذَا انطَفَأَت أَنْوارُها فَجأَةً

فَستَقِفُ فَجْأَةً وَيَتَرَدَّدُ

صُراخُها في السَّمَاء

أَبَتَاه.. لَقَد ضِعْتُ

(14)

المَساءُ حَائِرٌ

بين فَوانِيس الشَّارِع

وذَهَبُهُ مُلَوَّثٌ بِغُبَارِ المَدينة

وامرَأَةٌ مُتَبَرِّجَةٌ مُتَزَيِّنَة بِطَرِيقَةٍ

صَارِخَة تُطِلُّ من النَّافِذَة

نَارٌ مُوقَدةٌ في انتِظَار فَراشَاتِها اللَّيْلِيَّة .

وَبَغْتَةً ، تَجَمَّعَ النَّاس في الطَّرِيق

حَول مُتَشَرِّدٍ سَحَقَتْهُ عَجَلاتُ

إحدى العَرَباتِ

وَسَقَطَت المَرْأة المُطِلَّةُ من الشُّرْفَةِ

عَلى الأرض ، وهي تُعْوِلُ عَوِيلاً

يَائِساً مُتَأَثِّرةً بِأَلم الأمّ العُظْمَى

المُرْتَدِيةِ اللَّوْن الأحْمَر

التي تَجْلِس في المَعْبَدِ الدَّاخِلي لِلْكَوْن .

15

إنّي أَذْكُرُ

مَشْهَدَ الأرْض ِ البُورِ

وَصبِيَّة تَجْلِس وَحْدَها فَوق العُشْب

أَمَام مُخَيَّم ِ للغَجَرِ

مُنْصَرِفَةً إلى ضَفْر شَعْرِها

في ظِلاَل القَيْلُولَة

وكَلْبُها الصَّغِير يَقْفِزُ وَيَنْبَحُ

أَمَامَ يَدَيْهَا المَشْغُولَتَيْن

كَمَا لو كَان انشِغَالها بِضَفْرِ شَعْرِها

شيئاً لاَ أَهَمِيَّة لَهُ في نَظَرِه .

وحَاوَلَت عَبَثاً أَنْ تُؤَنِّبَهُ

وتُسَمِّيه (طَاعُوناً) مُعَبِّرَةً عن ضَجَرِها

وضَرَبَتْهُ عَلى خَيْشُومِه بِإِبْهَامِها

مُلَوِّحَةً بِتَهْدِيده

وقَد بَدَا لَه أَن ذَلِكَ كُلَّه

لزِيَادَةِ تَسْلِيته

ثُمَ نَظَرَت إلَيه مُتَجَهِّمَةً

مُهَدِّدَةً له بِعِقَابٍ قَرِيب

ثُمَ تَرَكَت خُصْلاَت شَعْرِها تَنْسَابُ

وفُجْأَة أَخَذَتْهُ في أَحْضَانِها

ضَاحِكَةً

وضَمَّتْهُ إلى قَلْبَها .

(17)

لَو قُدِّرَ لِساكِن القَرْيَةِ ذِي الأسْمَالِ البَالِيَة

الذي يَجُرُّ سَاقَيْهِ نَحْوَ بَيته عَائِداً مِن

السُّوق
أَن يُرْفعَ بَغْتَةً إلىٰ قِمَّة إحْدَى العُصُورِ
السَّحِيقَة
فإِن النَّاس سَوْفَ تَتَوَقَّفُ عَن أَعْمَالِها
وتُهْرَعُ إلَيْهِ صَارِخَةً بِفَرْحَتِها الغَامِرَة
لأنَّه لم يَعُد مُجَرَّدَ فَلاَّحٍ
ولَكنّها تَرى فِيه سِرَّ
عَصْرِهِ ورُوحه
وفَقْرُهُ وأَلَمُه يُصْبِحان أَشْيَاء عَظِيمَةً
مُتَحَرِّرةً مِن إهَانَات الحَاضِر
التَّافِهَة
والأشْيَاء البَائِسة التي تَحْتَويها سَلَّتُهُ
تَكْتَسِبُ جَلاَلاً مُؤثِّراً.

(18)

فِي الصَّبَاح

خَرَج للتَّنَزُّهِ في الطَّرِيقِ المُظَلَّل
بِصَفٍّ من أَشْجَار الدُودَارِ الذي يُطَوِّقُ الهَضَبَة
كَأَنَّه حُبٌّ مُتطَفِّل .
كَان يُمْسِكُ في يَدِه أَوَّلَ رِسَالَةٍ
جَاءَته مِن زَوْجَتِهِ التي احتَفَلَ بِزَفَافِهِ
عَلَيها مُنْذُ قَلِيل . إنَّها تَتَوسَّل إليه أَنْ
يَحْضُرَ إليها في أَقْرَبِ وَقْتٍ .
إن مُلاَطَفَةَ يَدٍ غَائِبَةٍ عَنْهُ
كَانَت تُثِيرُهُ ، بَيْنَمَا كَانَ يَتَنَزَّهُ
وبَدا كَأَنَّ الجَوَّ كُلَّه يَسْتَلِمُ صَرْخَةَ
تِلْكَ الرِّسَالَةِ
يَا حَبِيبي ، إن سَمَّائِي مَلِيئةٌ بالدُّمُوع
وسَأَلَ نَفْسَه في دَهْشَة :
كَيْف استَحَق هَذا؟
وبَدَت الشَّمْسُ فَجْأَة فَوْقَ خَطٍّ

الهِضَابِ الزُّرْقَاء
وَأَرْبَعُ صَبَايَا قَادِمَاتٍ نَحْوَه
مِنْ شَاطِيء مَجْهُولٌ، بِخُطُوَات خَفِيفَةٍ،
يَتَحَدَّثْنَ بِصَوت عَالٍ، وَيَتْبَعُهُنَّ
كَلْبٌ يَنْبَحُ.
أَما الكَبِيرتَان فَقد أدَارتا وَجْهَيْهِما
لِتُدَارِيَا استِمْتَاعَهُمَا
بِشَيءٍ غَرِيبٍ يَبْدُو فِي مَظْهَرِه.
أما الصَّغِيرَتَانِ فَقَد انضَمَّتا إلى
بَعْضِهِمَا ضَاحِكَتْينِ بِصَوت عَالٍ
ثُم هَرَبَتَا فِي بَهْجَةٍ طَافِحَة.
وَتَوَقَّفَ هُو خَافِضَ الرَّأسِ
ثُمَّ فَجْأَةً لَمَسَ رِسَالَتها
وَفَتَحهَا، وَقَرأَهَا مِنْ جَدِيد

(19)

لَقد جَاءَ اليَوْمُ

الذي يُحْمَلُ فِيه تِمْثَالُ الهَيْكَلِ

فَوقَ العَرَبَةِ، للطَّوَافِ بِه فِي المَدِينَةِ المُقَدَّسَة.

قَالَت المَلِكَةُ للمَلِك

لِنَذْهَبْ للمُشَارَكَةِ فِي الاحتِفَالِ.

وَمِنْ كُلِّ العَائِلَة، لم يَتَخَلَّفْ

سوى رَجُلٍ وَاحِد عَنْ هَذا

الحَجّ

لقد كَانَ عَمَلُهُ يَتَمَثَّلُ فِي جَمْعِ

أَعْوَادِ السَّعْفِ لصُنْعِ المَكَانِس

الخاصَّة بِقَصْرِ المَلِك.

وَشَعَر رَئِيس الخَدَمِ بالإشْفَاقِ

عَلَيه، فَقَالَ لَهُ:

يُمْكِنُكَ أن تَأْتِي مَعَنَا

ولكنه حَنَى رَأسَه قَائِلاً:

كَلاَّ . . مُسْتَحِيلٌ

إنّه يَسْكُن فِي الطَّرِيق التِي سَيَسْلُكُهَا

مَوْكِبُ المَلِك.

وَحِينَ مَرَّ الوَزِيرُ، مُمْتَطِياً فِيلَه

قُرْبَ دَارِهِ، دَعَاه قَائِلاً:

تَعَالَ مَعَنَا، لِتَرى الإِلَه

وَقَد حُمِلَ فَوقَ عَرَبَتِهِ.

فَأَجَابَه:

لَسْتُ مُعْتَاداً أَن أَبْحَثَ عن الإِلَه

بالطريقة التي يتّبِعُها الملك

فَسَأَله الوَزِيرُ

مَتَى سَيُتَاحَ لَك الحَظُّ لِمُشَاهَدَةِ

الإِلَه فَوْقَ العَرَبَة؟

فَأَجَابَه الرَّجُلُ :

حِينَ يَأْتي الإِلَه نَفْسُه إلى بَابِي .

فَضَحِكَ الوَزِيرُ مِنْهُ ضِحْكَةً عَالِيَةً

ثُمَّ قَال :

يَا لَكَ مِنْ غَبِيٍّ ، حينَ يَأْتِي اللَّه إلى بَابِكَ ؟ !

حتَّى المَلِكَ يَنْبَغِي أَن يَرْحَلَ لِمُشَاهَدَتِهِ !

فَأَجَابَه الرَّجُلُ :

وَمَنْ غَيْرُ الإِله يَزُورُ مَنَازِلَ الفُقَرَاءِ ؟

20

الأَيَّامُ أَخَذَت تَطُول

حينَ أَوْشَكَ الشِتَاءَ عَلَى الانْتِهَاءِ

وَكَلْبِي يَلْعَب فِي الشَمْسِ

بِطَرِيقَتِه الوَحْشِيَّةِ

المُفَضَّلَةِ

وكانَ الناس الذينَ يَتَوَجَّهُون إلى السُّوق
يَتَوَقَّفُونَ أمَام السِّيَاجِ ضَاحِكين
مِنْ رُؤْيَةِ هَذا الحُبّ الذِي يَقُومُ
بَيْن رَفِيقين يَنْتَمِيانَ إلى لُغَتَيْنِ
مُخْتَلِفتين جِدَّ الاختِلاَف.
الرَّبيعُ كَانَ يَبْدُو فِي الجَوّ
وَالأَوْرَاق الغَضَةُ تَتَماوَجُ كَأَنها اللَّهَبُ
وبَرِيق يرقص فِي عَيْنَي الكلْب الصَّغير
حِينَ يقفز، أو يَثْني رَقَبَته
عِنْدَ تَحَرُّك ظِلِّهِ
أو أُذُنَيْهِ متسمعاً
شَيْئاً مِنْ الهَمْسِ تَحْمِلُهُ الرِّيحُ
وَجَاءَت الرِّسَالَةُ مُتَدَفِّقَةً
مَعْ النَّسيمِ الشَّارِدِ
أو مَعَ وَمِيضِ البَرْقِ فِي سَمَاءِ أبرِيل.

إنهُ يُغَنّي الألَمَ الأوَّلَ

فِي شَبَابِ الكَوْنِ

حِينَ تَفتَّحت أوَّلُ زَهْرَةٍ

وَخَرَجَ الحُبُّ يَبْحَثُ عَمَا لاَ يَعْرِفُهُ

تَارِكاً كُلَّ مَا عَرَفَه .

إنَّها أُمْسِيَةٌ ، بَيْنَ أَشْجَار «الأملاك»

حِينَ تَتَكَاثَفَ الظِّلاَلُ

وَتُصْبِحُ عَذْبَةً بمداعبتِها

للنُّورِ .

وَرَحَلت تَعْدُو كَمَا لَو كَانَت

نَيْزَكاً عَاشِقاً لِلمَوْت .

وَخَيَّمَ الظَّلاَمُ ، وفي البَيْتِ

أُوقِدَت المَصَابِيحُ

وَظَهَرَت النُّجُوم ، وَهَبَط اللَّيْلُ على الحُقُولِ

وَلَكِن لَم تَعُدْ

فَأَسْرَعَ كَلْبِي يَعْدُو نَحْوِي
وَهُوَ يَعْوِي، وَيَسأَلنِي بِعَيْنَيْهِ
الرَّحِيمتين اللَّتين يَبدُو أَنَّهُمَا
كَانَتَا تَقُولاَنِ.. لاَ أَفْهَمُ
وَلَكِن مَنْ الذي يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْهَمَ؟

21

زُقَاقُنَا مُلْتَوٍ
كَمَا لَو كانَ قَد رَحَلَ مُنْذُ أَحْقَابٍ
بَاحِثاً عَنْ هَدَفِهِ
مُتَرَنِّحاً بين اليَمِين والشِّمَال
وَظَلَّ مُضْطَّرِباً إلى الأَبَدِ.
وَبَيْنَ المَبَانِي التي تَحفُّ بِهِ
يَبْدُو مِنْ السَّمَاءِ خَيْطٌ كَأَنَّه الشَّرِيطُ المُعَلَّقُ
وَيُسَمِّيهُ زُقَاقُنَا

أَخَاهُ فِي المَدِينَةِ السَّمَاوِيَّة .
لاَ يَرى الشَّمْسُ إلا لَحَظَاتٍ قَلِيلَةً
فِي الظَّهِيرَةِ ، وَيَتَساءَلُ
بِحِكْمَةٍ مُتَشكِّكَةٍ . . هَل هِي
حَقِيقَيَّة ؟
وفي بعضِ الأَحْيَانِ
يُعَتِّمُ مَطَرُ يونيو
هَذَا الشَّرِيطَ مِنْ النُّور
فَيبدُو كَأَنَّه خَطٌّ بِقَلَمِ الرَّصَاص
ويُصْبِحُ الزُّقَاقُ زَلِقاً بِسَبَب الوَحْل
والمِظَلاَّتُ تَتَنَاطحُ فِيهِ
وَتَدفُّق المِيَاهِ مِنْ الميازيب
فَوْق أَرْصِفَتِهِ المَبْهُورَة .
وفي دَهْشَتِهِ يَأخُذُ هَذِهِ
الأُمورَ كَمَا لَو كَانَت سُخْرِيةً

مِنْ مُؤَامَرةٍ غَيرِ لائِقَةٍ
حُبِكَت ضِدَّهُ
مُنْذُ خَرَجَ إلى الوُجُود.
وَنَسِيمُ الرَّبيعِ
فِي دَائِرَةِ الالتِوَاءاتِ
يَتَعَثَّرُ وَيَتَرَنَّحُ كَمُتَشَرِّدٍ ثَمِلَ يَتَعَثَّرُ
ضِدَّ الزَّوَايَا والأَرْكَانِ،
مَالِئاً
الهَوَاء المُغْبَرّ
بِكَمِّيَات من الوَرَق والخِرَق.
أَيَّةُ غَضْبَةٍ هَوْجَاء
هل جُنَّت الآلهة؟
يَتَسَاءَل الزُّقَاقُ
ولكن الفَضَلاتِ اليَوْمِيَّة
المَطرُوحَة مِنْ المَنَازِل عَلَى جَانِبَي الزُّقَاق

قِشَر الأَسْمَاك المُخْتَلِطة بالرَّمادِ
فَاكِهَة فَاسِدَة، وَفِئران مَيِّتَةٌ
لاَ تَدْفَعُ الزُّقَاقَ إلى أن يَتَسَاءَلَ
لِمَاذَا يَحْدُثُ كُلٌّ هَذَا؟
إنَّه يَقْتُلُ كُلَّ صَخْرَةٍ مِنْ أَرْضِهِ المُبَلَّطَةِ
وَلَكِن فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يَنْبُتُ
بَيْنَ شُقُوقِهَا عُودٌ مِنْ العُشبِ
فَيَبُثُّ فِيه الحَيْرَة.
كَيْفَ يُمْكِنُ للوَقَائِع الصَّلْدَةِ
أن تَسْمَحَ بِهذا التَّطَفُّل؟
وفي صَبَاحَ يَوْم من الأَيَّام
وَعَلى مُلاَطَفَةِ أَنوارِ الخَرِيفِ
استَيْقَظَت مَنَازِلُ الزُّقَاقِ
مِنْ أَحْلاَمِهَا اللاَّمَعْقُولَة
وَهَتَفَ قَائِلاً لِنَفْسِهِ:

هُنَاكَ رَوْعَةٌ لاَ حَدَّ لَها

فِيما وَرَاء هَذِهِ المَبَانِي!

ولكن السَّاعاتِ كانت تَمْضِي.

والعَائِلاَت نَهَضَتْ مِنْ نَوْمِها

والخَادِمَة تَعُود مِنْ السُّوق

وهي تَتَرَنَّح، في ذِراعها اليمنى

سلَّةُ التَّمْوِين

وَتَسْنُدُ خاصِرَتَها بِيَدِها اليُسْرَى

وَيَمْتَلِىء الجَوُّ بِرَائِحَةِ

المَطَابِخ وَدُخَانِها

وَيَبدُو وَاضِحاً لِزُقَاقِنا

أن الوَاقِعيَّ والعَادِيّ أشْيَاءُ

من صُنْعِهِ هُو ذَاتُه ومِنْ

صُنْع مَنَازِله وَأَكْوَامِ

قِمَامَتِه..

23

فِي أعماقِ الغَابِ
وَبِعْيَنين مُغْمَضَتَيْنِ عن عَزْمٍ وَإِصْرَارٍ
كَان النَّاسِكُ يَقُومُ بِفَرَائِضِ التَّوبَةِ والتكفير.
وفي قَصْدِهِ أن يَكُونَ جَدِيراً بِالفِرْدَوسِ
وَلَكِنْ الصَّبِيَّةَ التِي كَانَت تَجْمَعُ الأَغْصَانَ
كَانت تَحْمِل إِليه الفَاكِهَةَ على أَطْرَافِ تَنُّورَتِها
وَمَاءً تَغْرِفُه من الجَدْولِ
في كُؤوسٍ مَصنُوعَةٍ من الأَوْرَاق.
وَمضَت الأَيَّامُ، وَتَفْكِيرُهُ يَزْدَادُ
قَسْوَةً
وَظَلَّت الفَوَاكِهُ وَالمِيَاهُ لَم تُمَسَّ
واستَبَدَّ الحُزْنُ بِتِلْكَ الصَبِيَّةِ
وَسَمَع إلَه الفِرْدَوسِ

أن إنْسَاناً كَانَ يَتطلَّعُ
إلى أن يَصِيرَ في مُسْتوى الإِلَه .
ولقد قَاوَمَ المَرَدَة
الذين كانُوا يُوازُونه، مِرَاراً
واستَطَاعَ إبْعَادَهم عَنْ مَمْلَكَتِه
وَلَكِنَّه كَان يَخْشَى إنْسَاناً تَتجَلَّى
كُلُّ قُوَّتِهِ فِي تَحَمُّلِ العَذَاب .
وَلَكِنَّه كَانَ يَعْرِفُ الوَسَائِلَ التي يَنْفَذُ
بِها إلى البَشَرِ الفَانِين .
وَرَسَم خطَّةً تَصْرِفُ هَذَا
المَخْلُوقَ التُّرابِي عن مُغَامَرَتِه
فَهَبَّت نَسْمَةٌ من الفِرْدَوْسِ
وَقَبَّلَت جَسَدَ تِلك الصَبِيَّةِ
التِي كانت تَجْمَعُ الأَغْصَان
وَمَسَّت شَبابَها فجْأةً

مَسْحَةٌ مُذْهِلَةٌ مِنْ جَمَال

وَأَخَذَت أَفْكَارُها تَطِنُّ طَنِينَ النَّحْلِ

الذِي نُهِبَت خَلِيَّتُهُ .

وَجَاء الوَقْتُ الذي تَحَتَّمَ فيه على النَّاسِكِ

أن يُغَادِرَ الغَابِ

والانْسِحَاب إلى كَهْف

لِيُتِمَّ تَفْكِيرَهُ

وحِينَ فَتَحَ عَيْنَيْهِ للرَّحِيل إلى هَذَا الكَهْف

بَدَت لَه الصَبِيَّةَ كَقِطْعَةِ مُوسِيقِيَّةٍ

مَألُوفَةٍ، وَلَكِنَّها مَنْسِيَّة ،

وأن هُنَاك لَحْنَاً جَدِيدَاً جَعَلَهُ غَرِيقاً . .

فَنَهَض النَّاسِكُ مِنْ مَضْجَعِهِ

وَقَالَ لَها : إن الوَقْتَ قَد حَانَ

لأن يُغَادِرَ الغابَ

فَقَالَت لَه دَامِعَة العَيْنَيْن :

لِمَاذَا تَحْرِمُني مِنْ إمكَانِيَّةِ خِدْمَتِكَ
فَعَادَ النَّاسِكُ إلى الجُلُوس
وَاستَغْرَقَ في التَّأمُلِ طَوِيلاً
ولَبِثَ مَكَانَه.
وفي تِلكَ اللَّيلة
جَعَلَها تَأْنِيبُ الضَّمِيرِ
تَسْهَر طوَال اللَّيْل
وَأَخَذَت تَخْشَى قُوَّتَها
وحَقَدَت على انتِصارِها
وكان فِكْرُها يَسْبَح في أَمْوَاجِ
من الفَرَحِ المُضطَّرِب.
وفي الصَّباحِ، جَاءَتِ لِتَحِيَّتِهِ
وَطَلَبت بَرَكَتَه، وَقَالت: إنها
سَتَتْرُكه وَتَرْحَل
فَحَدَّق في عَيْنَيها، في صَمْتٍ

ثُمَّ قالَ لها :

ارْحَلِي . . إن رَغْبَتَك سَتَتَحَقَّق .

وطوَال أعْوَام

ظَلَّ جَالِساً وَحْدَهُ

حَتى تَمَّت فَرَائِضُ التَّوْبَة

وَنَزَل إِلَه الخَالِدِين عَنْ عَرْشِهِ

لِيَقُول لَه بِأَنَّه قَد غَنِمَ الفِرْدَوْسَ

بِهَذِه التَّوْبَة .

فَقَالَ النَّاسِك :

لَم أَعُد فِي حَاجَةٍ إلى الفِرْدَوْس.

فَسَأله الإِلَه عَن جَزَاءٍ أَعْظَمَ

من ذلك ، يَرْغَبُ فِيه

فَأَجَابَ النَّاسِكُ :

الصَبِيَّةُ جَامِعَة الغُصُونِ

23

يُقَالُ:

إنَّ (كَبِيراً) النَّسَاجَ

يَحْظَى بِعَطْفِ الآلِهَة

وَالنَّاسُ يَتَجَمَّعُونَ حَوْلَهُ

يَلْتَمِسُون الشِّفَاءَ وَتَحْقِيق المُعْجِزَات

وَلَكِنَّه كان مُتَضَايِقاً

وأُصُولُه المُتَوَاضِعَةُ

حَقَّقَتْ لَه أَثْمَنَ مَا يَطْمَحُ إِلَيْه مِنْ عُزْلَة

وكَانَ يُلَطِّفُهَا بِأَغَانِيه

وَحُضُورِ اللَّهِ إلى جَانِبِه

وكَانَ يُصَلِّي مِنْ أَجْل أَن تُعَادَ إِلَيْهِ

هَذِه الهِبةُ

وَحَسَد الكَهَنَةُ الشُّهْرَةَ التي ظَفِر بِهَا هَذا

المَنْبوذُ

فاتَّفقُوا مَعَ عَاهِرَةٍ

حَتَّى تُوقِعَه فِي كَارِثَة

وحينَ ذَهَبَ (كَبير) إلى السُّوقِ لِبَيْعِ

مَنْسُوجَاتِهِ

أَمْسَكَت المَرأَةَ بِيَدِهِ

مُتَّهِمَةً إِيَّاه بِالخِيَانَة

وَلَحِقَتْ بِهِ إلى بَيْتِه وهي تَقُول :

إنَّها لَن تَسْمَحَ لَه بالتَّخَلِّي عنها

فَقَالَ (كبير) في نَفْسِه

(إن لِلَّه طُرُقَه الخَاصَة في الاستِجَابَةِ

للدَّعَوَاتِ) .

وسَرْعانَ مَا شَعَرت المَرْأَةُ بِرجْفَةِ

خَوْفٍ تِسْرِي في كَيَانِها

وَوَقَعت عِنْدَ قَدَمَيْهِ صَارِخَةً :

أنقِذْنِي مِنْ خَطِيئَتِي
فَأَجَابَها
افتَحِي حَيَاتَكِ لِنُورِ اللَّهِ.
كانَ يَعْمَلُ (كبير) في مَنْسَجِهِ
وهو يُغَنِّي. وكانَت أَغانِيهِ
تَغْسِلُ قَلْبَ هَذِه المَرأَةِ وَتُطَهِّرُهُ
مِنْ خَطَايَاهَا التي وَجَدَت مَلاَذاً
فِي هَذَا الصَّوْتِ العَذْب.
وفي أَحَدِ الأَيَّامِ
رَكِبَتِ المَلِكَ نَزْوَةٌ مِنْ نَزَوَاتِهِ
فَبَعَثَ رَسُولَه إلى (كَبير)
وَطَلَب مِنْهُ أن يَأْتِي لِلغِنَاءِ
بِمَجْلِسِهِ.
فَهَزَّ النَّسَّاجُ رَأْسَه استِخْفَافاً
ولَكِنّ الرَّسول لم يَجْرُؤ

عَلى مُغادَرَةِ البَابِ دُونَ أَن تَتحَقَّقَ مَشيئَةُ المَلِكِ.

حِينَ دَخَلَ (كَبير) القَاعَةَ

نَهَضَ المَلِكُ وَرِجَالُ الحَاشِيَةِ

مُتَنَفِضِين

لأَنَّ (كبير) لَمْ يَكُنْ وَحْدَه

بَل كَانَ مَصْحُوباً بِتِلكَ المَرْأة.

فاستَغْرَقَ بَعْضُهم في الضَّحِكِ

وَتَجَهَّمَ البَعْضُ الآخَرُ وَقَطَّبُوا جَبِينَهم

وَتَجَهَّمَ وَجْهُ المَلِكِ

بِسَبب فُجُورِ هَذَا الرَّجُلِ وَخَلاَعَتِهِ

وَعَاد (كَبير) إلى بَيْتِهِ مُهَاناً

وَسَجَدَت المَرْأةُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ

هَاتِفَةً بِه:

لِمَاذا تَتحَمَّلُ هَذِه الإِهَانَةَ بِسَبَبِي

يَا سَيِّدي؟ دَعْنِي أعودُ

إلى عَارِي السَّابِق.

فَأَجَابَها (كَبير):

لَيْس مِنْ عَادَتِي أَن أَطْرُدَ رَبِّي

حِينَ يَتَعَرَّضُ للشَتْمِ والتَّحْقِير.

(26)

لَمْ يَكُنْ للرَّجُلِ أَيُّ عَمَلٍ نَافِع

وَكلُّ مَا يَتَمَيَّز بِه غرابَةُ أَطْوَارِه

وَعَجَائِبُه المُتَعَدِّدَةُ

فَكَانَت مُفَاجَأة كَبِيرَةً لَه

أَنْ يَجِدَ نَفْسَهُ فِي الفِرْدَوْسِ

بَعْدَ حَيَاةٍ أَنْفَقَها في التَّفَاهَات.

وَشَاءت الصُّدَفُ أَن يَقُودَهُ المُرْشِدُ

إِلى فِرْدوسٍ آخَرَ مُخَصَّصٍ

للأَرواحِ العَامِلَة الطَّيِّبَةِ.

وفي هَذَا الفِرْدَوس كَان هَذَا الرَّجُلُ

يَجُوبُ الشَّوَارِع مُتَسَكِّعاً بِلاَ غَايَة

مُعَرْقِلاً فَوْرَةَ الحَمَاس ِ للعَمَل .

وَتَقَرَّر عَزْلُه ، وَتَوْجِيهُ الإِنْذَارِ

إِلَيه لأَنَّه يَدُوس الأَرْضَ المَزْرُوعَةَ

فَإِذَا هُتِفَ بِهِ نَهَضَ وَاقِفاً

وَإِذَا دُفِعَ بِهِ مَشَى إِلى الأَمَام

وَصَبِيَّة مَشْغُولَةٌ

جَاءَت إِلى البِئْرِ لِسَحْبِ المَاءِ

وَكَانَت قَدَمَاهَا تَجْرِيان فَوْقَ الأَرْض ِ

المُبَلَّطَةِ كَمَا تَجْرِي الأَصَابِعُ فَوْقَ

أَوْتَار القِيثَار

وَعَقَدت شَعْرَهَا فِي عَجَلَة

وَبَقِيَت مِنْه خُصْلاَتٌ مُبَدَّدَةٌ

فَوْقَ جبينها تَتَجَسَّسُ
عَلَى حَوَرِ عَيْنَيْهَا.
فَقَالَ لها الرَّجُلُ:
أَتُعِيرِينَنِي جَرَّتَكِ؟
قَالت في استِغْرَابِ
جَرَّتِي؟ لِكَي تَغْرِفَ المَاءَ؟
قَالَ: كَلاَّ. وَلَكِن لأُزَيِّنَها
بِبَعْضِ الرُّسُومِ
فَأَجَابَتْه فِي استِخْفَافٍ:
لَيْسَ لَدَيِ وَقْتُ أُضَيِعُهُ
رُوحُ عَامِلَةٌ عَزلاءُ
ضِدَّ رُوحٍ بَلَغت أَقْصَى دَرَجَات الخُمُول
وَكَانَت تُقَابِلُه كُلَّ يومٍ عند البِئْرِ
وَكُلَّ يَوْمَ يَطْرَحُ عليها السُّؤَالَ نفسه،
حَتَّى أَذْعَنَت في النِّهَايَة

وَرَسَم الرَّجُلُ فَوْق الجَرَّةِ

بِأَلْوَانٍ غَرِيبَةً مَتَاهَةً غَرِيبَةً

بِخُيُوطٍ مُلْتَوِيَةٍ

فَأَخَذَت الفَتَاةُ الجَرَّةَ وَأَدَارَتْهَا

وَسَأَلَتْهُ :

مَا مَعْنَى هَذَا الرَّسْم؟

فَأَجَابَ :

لَيْسَ لَهُ أيّ مَعْنَى!

وحَمَلَت الفَتَاةُ الجَرَّةَ إلى بَيْتِهَا

وَتَأَمّلَتْهَا في مُخْتَلَفِ الأَضْوَاءِ

مُحَاوِلةً أَن تَفْهَم معنَاهَا الخَفِيّ

وكَانَت تَنْهَضُ في اللَّيْلِ مِنْ فِراشِها

وَتُوقِدُ المِصباح وَتَتَأَمَّلُ الجَرَّة

من مُخْتَلَفِ الجِهَات .

هذه هي المرَّة الأُولَى التي تُصَادِفُ

فِيهَا شَيْئاً لاَ مَعْنَى لَهُ .

وفي اليومِ التَّالِي كان صَاحِبُنَا

مِنْ جَدِيد إلى جَانِب البِئْرِ

فَسَأَلَته الفَتَاةُ :

مَاذا تُرِيدُ؟

أُرِيدُ أَن أُقدِّم إِلَيْكِ عَمَلاً آخَرَ

فَسَأَلتهُ مُتَرَدِّدَةً :

أيَّ عَمَلٍ ؟

أُريد أن أَنْسِجَ بِخُيُوطٍ مُلَوَّنَةٍ

شَرِيطَاً تَعْقِدين بِه شَعْرَكِ .

فَسأَلتَه :

هَلَ هُنَاك لُزُومٌ لِذَلك؟

فَأَقَرَّها قَائِلاً :

أَبَداً . . عَلَى الإِطْلاَق

وَنَسَجَ الشَّرِيطَ. ومنذُ ذَلِكَ الوَقْتِ

صَارَت تُنْفِقُ وَقْتاً طَوِيلاً فِي تَرْتِيبِ

شَعْرِهَا.

إن رتَابَة الزَّمَنِ المُوَّحَد

الذي أُحْسِنُ تَوْظِيفُهُ واستِخْدَامُه

فِي ذَلِكَ الفِرْدَوس أَخَذَ يُعْطِي

نَتَائِجَ شَاذَّة.

وقد انشَغَل كِبَارِ القَوْم

واجتَمَعُوا فِي نَدْوَة للتَّشَاوُرِ فِي الأَمْرِ.

واعتَرَفَ المُرْشِدُ بِخَطَئِهِ قَائِلاً:

إنَّه جَاءَ بِالرَّجُلِ غَيْر المُنَاسِب

في المَكَانَ غَيرِ المُنَاسِب

ودُعِي الرَّجُلَ غَيرُ المُنَاسِب

وكَانَتَ عِمَامَتُه الزَّاهِيَة

المُبَهْرَجَةُ كَافِيةً لِلدَّلاَلَةِ

عَلَى فَدَاحة الخَطأَ الذِي جَاءَ

بِه إلى الفِرْدَوس .

وَأَعْلَن كَبِيرُهم قَرَارَه :

عَلَيْك بِالعَوْدَةِ إلى الأرْض

فَتَنَفَّسَ الرَّجُلُ الصُّعَدَاءَ

وقال : إني جَاهِزٌ

وانضَمَّت إليه الفَتَاةُ

ذَاتُ الشَّرِيط المُلَوَّن

قَائِلَةً : . . وأنَا أيْضاً

وللمَرةِ الأُولى فِي حَيَاتِه وَجَد

زَعِيمُ الكِبَارِ نَفْسَه أمَامَ وَضْعٍ

لاَ مَعْنَى لَه .

27

قالوا إن في الغَابِ

حَيْثُ يَلْتَقِي النَّهْرُ بالبُحَيْرَة

تَعِيشُ بَعْضُ الحُورِيَّات المُتَنَكِّرَات
وَلاَ يُعْرَفُ أَنَّهُنَّ حُورِيَاتٌ
إلا عند اختِفَائِهِنَّ عن الأَنْظَار.
وَخَطَر لأَحَدِ الأُمَرَاءِ أَنْ يَذْهَبَ إلى هَذَا الغَابِ
وَحِينَ بَلَغَ المَكَانَ الذِي يَلْتَقِي فِيهِ
النَّهْرُ بِالبُحَيْرَةِ، أبْصَر فَتَاة قَرَوِيَّةً،
جَالِسَةً عِند الضِفَّةِ، وهِيَ
تَرُجُّ المِيَاهَ لِكَيْ تُرْقِصَ فَوْقَها أَزْهَارَ
الزَّنْبَق.
فَسَأَلها الأَمِيرُ هَامِساً:
خَبِّرِيني، أَيَّةُ حُورِيَّة أَنْتِ؟
فَضَحِكَت الفَتَاة لِهَذَا السُؤَال
ورَدَّدَت الهِضَابُ صَدى ضَحْكَاتِها
وَظَنَّ الأميرُ أَنَّها حُورِيَّة الشَلاَّلِ
الضَّاحِكَة.

وَأَبْلِغَ المَلِكُ بِخَبَرِ زَوَاجِ الأَمِير
مِنْ إحدَى الحُورِيَّاتِ
فَبَعَثَ فِي إِثْرِهِ فُرْسَاناً وَخُيُولاً
وَأَعَادَه إلى قَصْرِه .
وَرَأَت المَلِكَةُ عَرُوسَ ابنِهَا
فَأَشَاحَت عَنْهَا فِي اشمِئْزَازِ وَنُفُورِ
وَتَضَرَّجَت أُختُ الأمير سُخْطاً عَلَيها .
أَمَّا الوَصِيفات فَقَد تَسَاءَلْن إذا
كانت الحُورِيَّاتُ يَرْتَدِينَ مَلاَبِسَهُنَّ بِهَذِهِ
الطَّرِيقَة .
وَلَكِن الأَمِير أَسْكَتَهُنَّ قَائِلاً :
إِن حُورِيَّتِي جَاءَت إلى قَصْرِنا مُتَنَكِّرَة .
وفي يَوْم الاحتِفَالِ بِالعَامِ الجَدِيد
قَالَت المَلِكَةُ لابْنِهَا :
قُل لِزَوْجَتِكَ إلاَّ تُعْطي صُورَةً

سَيِّئَةَ أَمَامَ أَقَارِبِنَا الذين سَيأْتُونَ
لِرُؤْيَة الحُورِيَّة .
قَالَ الأَمِيرُ لِزَوْجَتِهِ :
اسْتَحْلِفُكِ بِحُبِّي ، أن تَظْهَرِي
على حَقِيقَتِكِ أَمَامَ أقرِبَائِي
فَجَلَسَت فِي صَمْتٍ، فَتْرَةً طَوِيلَة
ثُمَّ تَضجَّرت بَيْنَما كَانت الدُّمُوعُ
تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهَا
وكَان البَدْرُ يَتَأَلَّقُ فِي السَّمَاء
وَدَخَلَ الأَمِيرُ بِثوبِ الزِّفَافِ
إِلى غُرْفَة زَوْجَتِهِ
وَلَكِنَّه لَمْ يَجِدْ أَحَداً
لاَ أَحَد سِوى شَرِيطٍ من شُعَاعِ القَمَرِ
يَنْسَابُ مِن النَّافِذَة لِيَنْعَكِس عَلَى
السَّرِير

وَدَخلَ الأَقَارِبُ، زُمْرَةً وَاحِدَةً،
صُحْبَةَ المَلِك والمَلِكَة والأَمِيرَة
أُخْت الأَمِير الذِي كانَ واقِفاً
قُرْبَ البَابِ
وَسَأَلُوه
جَمِيعاً
أين الحُورِيَّةُ العَرُوس؟
فَأَجَابَ الأَمِير.
لَقد تَلاَشَت إلى الأَبد حَتَّى
يُمْكِنَكُم التَّعَرُّفَ عَلَيها

(29)

حين السيل الدافق من الهضاب
فِي ظَلاَّمِ اللَّيل
كما يُغمدُ السيفُ الساطعُ فِي غُمْدِه

انْطَلَقَ فَجْأَةً، هُنَاكَ، سِربٌ
مِنْ الطُيُورِ، بِأجنِحَةً تَضْحَكُ
لِصَوْتٍ عَالٍ، مُنْدَفِعَةً بِطَيَرَانِها
كالسهمِ نحوَ النُجُوم.
وَفِي قَلْبِ كُلٍّ المخلُوقَاتِ الساكنة
كانت تُوقِظُ حُباً للسرعة
والاندِفَاعِ
وَكَانت الهِضَاب تَبْدُو وهي
تَشْعُر فِي صَدْرِهَا بِلوعةِ الغيومِ
العاصِفَةِ، والأشجارِ كانَتْ
تتطلَّع إلى أن تَنْتَزِعَ جُذُوعها
مِنْ جُذُورِهَا.
أما بالنسبةِ لِي
فإن تَحْلِيقَ تلك الطيور
حِجَاباً مِن الخُمُولِ

كَشَفَ لِي عَنْ رَجْفَةٍ عَظِيمَةٍ

فِي هَذَا السُكُونِ العَمِيقْ

فَكُنتُ أَرَى هَذِهِ الهِضَابَ

وَالغَابَاتِ تُحَلِّقُ فِي الزَمَنِ نَحْوَ

المَجْهُولِ

وَالظَلاَمَ يَتَحَوَّلَ فِي ارتِعَاشٍ إلى نَارٍ

بَيْنَمَا تَطِيرُ النُجُومُ رَاحِلَةً.

وَأَحْسَستُ فِي كَيَانِي

الطُيُور التِي تَعْبُرُ البَحْرَ

سَالِكَةً طَرِيقاً يَتَجَاوز حُدُودَ

المَوتِ والحَيَاةِ

بَيْنَمَا الكَوْنُ النَازِح

يَهْتُفُ بِآلافِ الأَصْوَاتِ

لَيْسَ هُنَا، وَلَكِنْ فِي بَعْضِ

الأَمَاكِنْ الأُخْرَى، فِي حُضْنِ

33

عيناي تَفْطَنَانِ

إلى الهُدُوءِ العَمِيقِ

لِهَذِهِ السَّمَاءِ

وَيَتَحَرَّكُ في نَفْسِي مَا تُحِسُّهُ الشَّجَرَةُ

حِينَ تَمُدُّ أَوْرَاقَها كَكُؤوسٍ

يَنْبَغِي أَنْ يَمْلأَهَا نُورُ الشَّمْس

وَفِكْرَةٌ تَنْهَضُ فِي خَاطِرِي

مِثْل الرَّائِحَة السَّاخِنَة التِي تَنْبَعِثُ

مِنْ العُشْبِ المَنْشُورِ تَحْتَ الشَّمْس

وَيَمْتَزِجُ بِقَرْقَرَةِ المِيَاهِ

وَأَنْفَاسِ الرِّيحِ المُتْعَبَةِ فِي طُرقِ
القَرْيَةِ
فِكْرَةُ أَنَّنَا عِشْنَا مَعاً طوَال هَذِه
الحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ
وَأَعْطَيْتُهَا حُبِّي نَفْسَه
وَآلاَمِي . .

(37)

أعطِنِي شَجَاعَة الحُبِّ المُثْلَى
هَذَا هُوَ دُعَائِي
شَجَاعَة أن أَتَحَدَّث ، وَأن أتصرَّفَ
وَأن أَتَأَلَّم لإرَادَتِكَ
أنْ أَتْرُكَ جَمِيع الأَشيَاءِ
وَأنْ يَتْرُكَنِي الغَيْرُ وَحْدِي
قَوِّنِي بِالمَهَام الخَطِيرة

وَشَرِّفْنِي بِالأَلَم

وَسَاعِدْنِي عَلَى الارْتِفَاعِ

إلى تِلْكَ النَّفْسِ العَسِيرَةِ

التي تُضَحِّي كُلَّ يَوْمٍ مِن أَجْلِك

أعطِنِي يَقِينَ الحُبِّ الأَسْمَى

هَذَا هُوَ دُعَائِي

اليَقِينُ الذِي يَخُصُّ الحَيَاةَ فِي المَوْتِ

والنَّصرَ في الهَزِيمَة

والقُدْرَةَ الخَفِيَّةَ

فِي أَشَدِّ مَظَاهِرِ الجَمَالِ رِقَّةً وَرَهَافَةً

وَإلى التَرَفُّعِ فِي الأَلَمِ الذِي يَقْبَلُ

الإِسَاءَةَ، وَلَكِنَّه يَتَعَفَّفُ عَن مجَازَاتِها

بِالإِسَاءَةِ.

* * *

رايداس الكنّاس

رَايْدَاس الكَنَّاس كَانَ جَالِساً فِي صَمْت

ضَائِعَاً فِي وحدَةِ رُوحِه

وَبَعْضُ الأُغنِيَات التِي انبثقتْ مِنْ رُؤاه الصَّامِتَة

وجدت مَدخَلاً لَها فِي قَلْبَ رَانِي

رَاني جْهَالي مِنْ كِيتُورِي

وَكَانَت الدُّمُوعِ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا

وَأَفكارُها تَجُوب فِيمَا وَرَاءَ وَاجِبَاتِهَا اليَوْمِيَّة

حَتَّى التقت بِرَايْدَاس الذِي قَادَها

إِلى الحُضُورِ الإلهي

وقد لاَمَهُ البَرْهَمِيّ العَجُوز الذِي يَعْمَلُ فِي القَصْرِ المَلَكِي

عَلَى تَدْنِيسِه للشَّرِيعَةِ المُقَدَّسَة

حِينَ كَرَّمَ امرأةً مَنْبُوذَةً لا تنتمِي إِلى طَائِفَة

وَاتّخَذَ مِنْهَا مُرِيدةً

فَأجَابتهُ رَانِي

أيّها البَرْهَمِي حِين كُنْتَ مُسْتَغْرِقاً

فِي زِيَادَةِ تَوْثِيق خُيُوطِ حَقِيبَةِ

العَادَاتِ، تَزَحْلَقَ ذَهَبُ الحُبِّ

خِفْيَةً، فَوْقَ الأرض، وَتَقَدَّمَ

مُعَلِّمِي بِتَوَاضُعِه المُقَدَّس لالتِقَاطِهِ

مِنْ فَوْق التُّراب .

فَلتَنْعَم بِكِبْرِيَاءَ رَوَابِطِكَ العَدِيدَة

الخَالِية مِنْ كُل مَعْنَى ولْيَقْسُ قُلبُكَ

ولكنّني أنا المُتَسَوِّلَةُ

سَعِيدَة بِأن أسْتَقْبِل ثَرْوَة الحُبّ

عَطِيَّةَ التُّرابِ البَسِيطِ

مِنْ مُعَلِّمِي

الكَنَّاس .

كريشنا كالي

إني أُسَمِّيها زَهْرَتِي

زَهْرَة الكِرْيشنَا

رغمَ أنهم يَقُولون إنَ بَشَرَتَهَا سَمْرَاء

أَذْكُرُ يَوْمَاً مُلَبَّداً بِالغُيُوم

وَنَظْرَةً خَاطِفَةً مِنْ عَيْنَيْهَا

وَرِدَاءَها الذِي يَنسَابُ حَتَّى قَدَمَيْهَا

وغدائِرَها المُرْسَلَة فَوْقَ كَتِفَيْها .

تَقُولون إن بَشَرَتَها سَمْرَاءُ

فَلِيَكُن ذَلِك .

لَقد رَأيتُ عَيْنَيها الحَوْرَاوَيْن

عَيْنَي الغَزَالَة

كانت بَقَراتُها تَخُورُ فِي المَرْعَى

حِينَ تَحَوَّل النُّور ُإلى اللَّوْنِ الرَّمَادِي الشَّاحِب
وَخَرَجَت بِخُطُوَاتٍ مُسْرِعَةٍ
مِنْ كُوخِهَا الوَاقِع ِ قُرْبَ غَابَةِ البَامْبُو
وَرَفَعَت إلى السَّمَاءِ عَيْنَيْهَا المُتَّقِدَتَيْن
نَحْوَ الغُيُوم ِ المُثْقَلَةِ بِالأَمْطَار.
أنتم تَقُولُون إن بَشَرَتَها سَمْرَاءُ
فليكن ذَلِك.
لَقد رَأَيتُ عَيْنَيْها الحَوْرَاويْن
عَيْنَي الغَزَالَة.
ريح الشرق بِهَبَّاتِهِ المُتَقَلِّبَة
كان يُمَوِّجُ حُقُول الأَرْزِ
وَكُنْتُ قَرِيباً مِنْ السِّيَاج ِ الفَاصِل
وَلَم يَكُن هُنَاكَ أَحَدٌ غَيْرِي
فِي هَذِه الأَرض القَفْرَاء
فَإِذَا كَانَت قَد انتبَهت لِوُجودِي سِرّاً

أوَ لَمْ تَنْتَبِه

فَذَلِك شَيءٌ تَعْرِفُه هِي وَأَنَا

أَنتم تَقُولُون إن بَشَرَتها سَمْرَاء

فَلْيَكُن ذَلِك.

لَقَدْ رَأيتَ عَيْنَيْها الحَوْرَاوَيْن

كَعَيْنَي الغَزَالَة

هِيَ المُفَاجَأة التي تُحْدِثُها الغَيْمَةُ

فِي صَمِيم شَهْرِ مَايُو المُسْتَعِر.

هِي ظِلٌّ رَقِيقٌ عَلَى الغَاب

فِي سُكُونِ سَاعَة الغُرُوب

هِي سِرٌّ مُتْعَةٍ صَامِتَةٍ

فِي اللَّيْلَة المُمْطِرَة مِنْ شَهْرِ يُونِيُو

أَنتُم تَقُولُون إن بَشَرَتَها سَمْرَاء

فَلِيَكُن ذَلِك

لَقد رَأَيْتُ عَيْنَيْها الحَوْرَاوِين

كَمَيْنَي الغَزَالَة

إني أُسمّيها زَهْرَتي، زَهْرَةَ كِريشْنَا

وللآخَرِين أن يَقُولُوا مَا يَشاءُون

وَفِي حَقلِ الأُرز بِقَرية (ماينا)

شَعَرت بأُولى نَظَراتِ عَيْنَيْهَا

لَم تَكُنْ تَضَعُ خِمَاراً عَلَى وَجْهِها

وَلَم يَكُنْ لَهَا الوَقْتُ الكَافِي للانْسِحَاب.

أَنتُمْ تَقُولُون إنّها سَمْرَاءُ البَشَرَةِ

فَليَكُن

لَقَد رَأيت عَيْنَيْها الحَوْرَاوَيْنِ

كَمَيْنَي الغَزَالَة.

* * *

أغنية سانتينكتان

هِيَ عَزِيزَتُنَا سَانتِيكْتَان

الأَثِيرَةُ لَدَيْنَا

أَحْلاَمُنَا هُدْهِدَت فِي أَحْضَانِها

وَبَيْنَ ذِرَاعَيْهَا

ومُحَيَّاها رَوْعَةٌ نَاضِرَة للحُبّ

كُلَّما رَأَيْنَاه .

لأَنَّها لنا ، لأَنّها عَزِيزَتُنَا

نَلْتَقِي فِي ظِلاَل أَشْجَارِها

وَفِي حُرِّيَةِ سَمَائها المَفْتُوحَة

إصْبَاحَاتُها تَأْتِي إِلَيْنَا

وَأمسِياتُها تَحْمِلُ قُبلَ السَّمَاءِ

مُشْعِرَةً إِيَّانَا مِنْ جَدِيدٍ

أنَّها لَنا، وَأَنها الأَثِيرَةُ لَدَى

قُلوبِنا.

صَمْت ظِلاَلِها

يُوقِظُه هَمْسُ الغَابَات

وَغَابَاتُها الصَّغِيرَةُ مِنْ شَجَرِ (الأَمْلاَكِي)

تَرْتَجِفُ بِرَوْعَة الأَوْرَاق.

إنَّها تَسْكُن فِينَا، وَحَوْلَنا

مَهْمَا أَوْغَلْنَا فِي البُعْدِ عَنْهَا

إنّها تَضْفِرُ قُلُوبنَا فِي أُغنِيّة

وَتُوَحِّدُنا فِي الأَنْغَام

وَتَضْبِطُ أوتَارَ حُبِّنَا

بِأصَابِعِها الرَّقِيقَة

ونَحْنُ نَذْكُرُ دَوماً

أَنّها لَنَا، هَذِه الحَبِيبَةُ

إلَى قُلُوبِنَا

و. و. بيرسون

إنَّكَ لَتَنْسَى نَفْسَك بِطَبْعِكَ

وَلَكِنَّنا نَحْنُ نَذْكُرُكَ

إنَّك تَتَألَّق فِي تَحَجُّبِكَ

الذِي يَكْشفُه حُبُّنَا

إنَّك تُعِيرُ نُورَ رُوحِكَ

لأُولئك المَغْمُورِين

وَلاَ تَبْحَثُ لاَ عَنْ الحُبّ

وَلاَ عَنْ الشُّهْرَةِ

وَلَكِن الحُبّ يُظْهِرُكَ

* * *

إشباع

إن الثَّرْوَةَ الوَافِرَة
لِنِعْمَتِكَ الغَامِرَة
تَنْزِلُ مِنْ سَمَائِهَا
بَحْثاً عَن رُوحِي التي يُمْكِنُ
أَن تَحْتَوِي فِيها نَفْسَهَا
والنُّور الهَاطِلُ مِنْ الشَّمْسِ والنُّجُومِ
يُشْبِعُ رَغَبَاتِهِ حِينَ يَبْلُغُ حَيَاتِي
واللُّونُ يُشْبِهُ النُّعَاس
المَشْدُود بِقُوَّةٍ إلى الزَّهْرَةِ
التي تَنْتَظِرُ لَمْسَتِي لِكَي تَسْتَيْقِظ

والحُبّ الذِي يُنسّقُ أَوْتَارَ الوُجُودِ
يَنْفَجِرُ فِي مُوسِيقَى
حِينَ يُقْهَرُ القَلْبُ

* * *

ابن الإنسان

مِنْ عَرْشِه الخَالِدِ
هَبَطَ المَسِيحُ إلى هَذِه الأَرْض
حيث سَكَبَ، مُنْذُ أَحْقَابٍ بَعِيدَةٍ
حَيَاتَه الخَالِدَة
فِي كَأْسِ الموتِ المُرّ
مِنْ أَجْل أُولئِكَ الذين استَجَابُوا لِنِدَائِهِ
وَأُولئك الذينَ ظَلُّوا بَعِيدِينَ عَنْهُ
وَتَأَمَّل حَوْلَهُ
فَرَأى أسْلِحَة الشَرّ
تُثْخِنُ فِي زَمَنِه حَتَّى المَوْتِ.
الحِرَابُ والسِّهَامُ المُتَعَجْرِفَةُ

والخَنَاجِرُ الحَادَّةُ الرَّهِيفَةُ

والسُّيوفُ ذات الأغْمَاد المَاكِرَةِ

السُّيوف المُقَوَّسَةُ البَاتِرَة

تقدح كُلُّها الشَّرَرَ

حِينَ كَانَت تُسَنُّ

على مِسَنَّاتٍ مُخِيفَةٍ

وَلَكِنَّ أَفْظَعَها جَمِيعاً

فِي أَيْدِي أُولئك الجَزَّارين

كَانت تِلكَ التِي نُقِشَ عَلَيْهَا

إسْمُه هُوَ.

وَنُصُوصٌ مَنْقُولَةٌ

مِنْ كَلِمَاتِهِ هُوَ نَفْسه

صُهِرَت فِي نَارِ الحِقْدِ

وَطَرقَها الجَشَعُ المُنَافِقُ.

وَوَضَعَ يَدَه عَلَى قَلْبِهِ

وَشَعَر بِأن السّاعة المَاضِيَة

لِوَفَاتِهِ لَم تَنْتَهِ بَعْد.

وأن مَسَامِيرَ جَدِيدَةً

صُنِعَت بِأَعْدَادٍ ضَخْمَةٍ

مِن قِبَلِ رِجَالٍ ماهِرِينَ مَاكِرِين

ستَطْعَنُهُ وتَخِزُهُ في كُلّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ.

الذينَ جَرحُوه فِي المَاضِي

وَاقِفِين فِي ظِلِّ مَعْبَدِهِم

قَدْ وُلِدُوا مِنْ جَدِيدٍ

فِي زُمَرٍ عَدِيدَةٍ

وَأَمَام هَيْكَلِهِم المُقَدَّس

يَصْرُخون فِي الجُنْدِ

اضْرِبُوه.

وابن الإنسانُ

يَصْرَخُ فِي أَوْجَاعِهِ

يَا إلهي . . يا إلهي ، لِمَاذَا تَخَلَّيْتَ
عَنِّي . .

* * *

حرية

التَحَرُّر مِنْ الخَوْفِ

هُوَ التَحَرُّر الذِي أَطْلُبُهُ لَكَ

يَا وَطَنِي العَزِيز

الخَوْفُ، ذَلِكَ المَارِدُ الخَيَالِي

الذِي صَاغَتْهُ أَحْلاَمُكَ المُعْوَجَّة،

التَّحَرُّر مِنْ أَثْقَال السِنِين

التِي تَحْنِي رَأَسَكَ

وَتَكْسِرُ ظَهْرَكَ

وَتُعْمِي عَيْنَيْكَ

عَنْ نِدَاءِ المُسْتَقْبَل السَّاحِر.

التَّحَرُّر من جُذُوعِ الكَسَلِ والخُمُول

التي تُقَيِّدُ بِها نَفْسَكَ إلى جُمُودِ

اللَّيْل

مُرْتَاباً فِي نَجْمَةِ اللَّيْلِ التِي تُشِيرُ

إلى طَرِيقِ المُغَامَرَةِ فِي سَبِيل الحَقِيقَة.

التَّحَرُّر مِنْ فَوْضَى مَصِيرٍ

مَا تَزَالُ أَسْتَارُه المُحجَّبَةُ

مَوْكُولَةً إلى الرِّيَاحِ العَمْيَاءِ الغَامِضَة

والمِقْوَدُ مَوْكُولاً إلى يَدٍ بَارِدَةٍ، جَامِدَةٍ

كالمَوْت.

التَّحَرّر مِنْ نقِيصه الإِقَامَةِ فِي

عَالَمٍ من الدُّمَى تُوَجِّهُ حَرَكَاتِهَا

خُيُوطٌ بِلاَ عَقْلٍ، ومكرَّرَة بِلاَ مَعنى

بِحُكْمِ العَادَةِ وَالمَأْلُوف

حَيْثُ الشُّخُوصُ

تَقِفُ فِي طَاعَةٍ سَلْبِيَّةٍ

مُنْتَظِرَة مُحَرِّكَ الدُّمى

يُوقِظُهَا بُرْهَةً قَصِيرَةً

مِنْ غَفْوَتِهَا ، لِتُقَلِّدَ الحَيَاة تَقْلِيداً هَزِيلاً .

30

كان الجمهورُ يُصْغِي فِي إعجابٍ إلى كَاشِي

المُغَنّي الشَّاب الذي كان صوتُه كالسَّيفِ البَتَّار

يَرْقُصُ بَيْنَ العُقَدِ اليَائِسَةِ

فَيُقَطِّعُها أَجْزَاء ثُمَّ يَنْشُرُ الفَرَح .

وكانَ بين السَّامِعَين

يَجْلِس العَجُوز (راجا براتاب) ، مُتَفَجِّراً .

فَلَقَد غَنّى حَيَاته و أَحَاط بِها صَوْت (براجلال)

كما يُحيط النَّهْرُ بِجمَالِه بَلَداً سَعِيداً .

فأمسياتُه المُمْطِرَةُ

وسَاعَاتُه الهَادِئَةُ مِن أَيَّامِهِ الخَرِيفِيَّة

وَلَيالي أعْيَادِهِ

كانت تَتَحَدَّث إليه عَبْرَ صَوْت (براجلال)

وَلَيالي أعْيَادِه

كانت تُخَفِّفُ من أَضْوَاءَ مَصَابِيحِها

وَتَقْرَع أَجْرَاسَها

على مُوسِيقى أغنِيَاتِه .

وحينَ تَوَقَّفَ (كاشي) عن الغِنَاءِ

عَمَزَ (بَاراتَاب) باسماً (براجَلال)

وتحدث إليه هَمْساً :

أيُّها المُعَلِّم ، الآن أسمِعْنَا المُوسِيقَى الحَقِيقِية

وليس هَذِه الأُغنِيَات الحَدِيثَة

التي تَبْدُو كَأَنَّها قِطَطٌ وثَّابَةٌ تُطَارِدُ

فِئرَاناً مَشْلُولَة .

وانحنى المُغَنّي العَجُوزُ
بِعِمَامَتِه البَيْضَاءِ النَّاصِعَةِ
أمام الجُمْهُور، وَأَخَذَ مَكَانَه لِلغِنَاءِ
وَلَمسَت أَصَابِعُه الرَّقِيقَةُ
أوتَارَ الآلَةِ
وبعيْنَين مُغَمَضَتَيْن ، تَرَدَّدَ قَلِيلاً
فِي شَيءٍ مِنْ الخَجَل، ثم شَرَع فِي الغِنَاء.
كانت القَاعَةِ كَبِيرةً، وَصَوْتُهُ وَاهِناً ضَعِيفاً
وَهَتَفَ بِهِ بَرَاتَاب : (أَحْسَنْتَ) بِإصْرَار
وَلَكِنّه هَمَسَ فِي أُذْنِه :
يَا صَدِيقي، ارْفَع صَوْتَكَ قَلِيلاً
ولكن الجُمْهُور كانَ مُتَضَجِّراً
وَبَعْضُهم كَانَ يَتَثَاءَبُ
وَبَعْضُهم أَخَذَ يَنْعَسُ
وآخرون كَانوا يَتَذَمَّرُون من الحَرّ

وَأخَذَ جَوُّ القَاعَةَ يَطِنُّ بِضَجيجٍ
مِنْ مُخْتَلَف الإيقَاعَات
وكان الغِنَاءُ، كالزَّوْرَق الهَشِّ
يُحاوِلِ عَبَثاً أن يَبْقى عَلَى السَّطْحِ
حَتَّى لاَ يَغْرقَ تَحْتَ الضَّجِيجِ .
وَأَحَسَّ العَجُوزُ بِحَرَجٍ فِي قَلْبِهِ
وَنَسِي إحدى الفَقَرَاتِ الغنائية
وَتَرَنَّح صَوْتُه مُتَوَجِّعاً
كما يَتَرَنَّح أعْمَى فِي مَعْرَضٍ يَبْحَثُ
عَنْ مُرْشِدِه الضَّائِعِ .
حَاول أن يَسُدَّ الفَجْوةَ
بِأَوَّلَ مَقْطَع يَرِدُ عَلَى ذِهنِهِ
ولكن الفَجْوَةَ ازدَادَت اتِّسَاعاً
والأنغامُ المُعَذَّبَة رَفَضَت
أن تلبّي رَغَبَاتِه

وفجأةً غيّرت إيقاعَهَا
وَمَالَ المُعلم برأسِهِ
فوق آلتِه
وعِوَضًا عن الأَلحان المنسيّة
طَفَر من عَيْنَيه
الدمعُ الذي يَحْمِلهُ
الطفلُ إلى العَالَمَ
فَرَبتَ «بَرَاتَاب» بِلُطْفٍ
على كَتِفيْهِ
قَائلا :
تعال، إن اجتماعَنَا في غَيْرِ
هذا المكان، يا صديقي إن
الحقيقةَ عَزْلاَءُ بِغَيْرِ الحُب
والجمالَ لا يُقِيمُ بَين السَّواد
الأعظم ولا في الوقتِ الحاضر

البَخُورُ يذُوبُ لِيَتَحَلَّلَ فِي العِطْر
والعِطْرُ يَذُوبُ لِكَيْ يَلْتَحِمَ بالبَخُور
والنَّغَمُ يَسْعَى لِمُعانَقَةِ الإيقَاع
بَيْنَما يَعُودُ الإيقَاعُ مُتَدَفِّقاً في النَّغَم
والفِكَرَةُ تَبْحَثُ عن هَيْأَتِهَا فِي الصُّورَة
والصُّورَةُ تَبْحَثُ عَنْ حُرِّيَتِهَا فِي الفِكْرَة
واللاَّنِهَائِي يَبْحَثُ عَن لَمْسَةِ النِّهَائِي
والنِّهائِيَ يَبْحَثُ عن انعِتَاقِهِ فِي اللاَّنِهَائِي
أيُّ مأْسَاةٍ هَذِهِ تَجْرِي بَيْن الخَلْقِ والتَّدْمِير
وهَذِهِ الحَالَةُ بَيْنَ الفِكْرَةِ والصُّورَة
العُبُودِيَّةُ تُصَارِعُ الحُرِّيَة
والحُرِّيَةُ تَبْحَثُ عَن رَاحَتِهَا فِي العُبُودِيَّة

الدار العربية للكتاب

المقر الرسمي : شارع غومة المحمودي ـ ص. ب : 3185 طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ـ الهاتف : 30384 ـ 47287 ـ تلكس : 20003 الكتاب

الفرع الرئيسي : 4 ، نهج 7101 ـ المنار 2 ص. ب : 1104 القباضة الأصلية 1000 تونس ـ الجمهورية التونسية ـ الهاتف : 236600 ـ 236025 ـ تلكس : 14966 كتاب